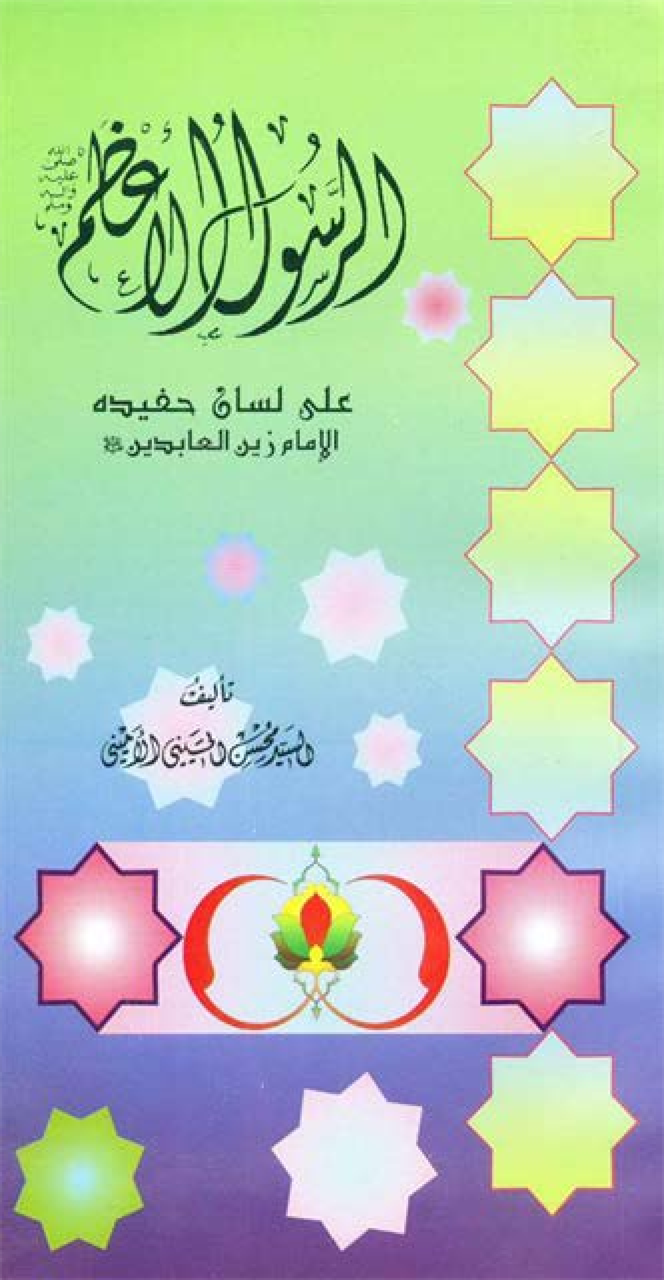

الرسول الأعظم
صلى الله عليه وآله وسلم
على لسان حفيده
الإمام زين العابدين عليه السلام
تأليف
السيد محسن الحسيني الأميني



الرسول الأعظم
على
لسان حفيده

الرسول الأعظم (ص)

على لسان حفيده

تأليف

السيد محسن الحسيني الأميني

سر شناسه	حسینی امینی، محسن، ۱۳۱۲.
عنوان و پدیدار	الرسول الأعظم علی لسان حفیده الامام زین العابدین ﷺ تألیف محسن الحسینی الامینی.
مشخصات نشر	قم: پیام امام هادی ﷺ، ۱۳۸۵.
مشخصات ظاهری	۱۵۵ ص.
شابک	۸۰۰۰ ریال 3-02-8837-964
یادداشت	فیپا
یادداشت	کتابنامه [۱۲۹]ـ۱۵۵: همچنین به صورت زیر نویس.
موضوع	علی بن حسین ﷺ، امام چهارم: ۳۸ـ۹۶ق ــ احادیث.
موضوع	محمد ﷺ، پیامبر اسلام ۵۳ قبل از هجرت ـ ۱۱ ق ـ احادیث.
موضوع	محمد ﷺ، پیامبر اسلام ۵۳ قبل از هجرت ـ ۱۱ ق ـ کلمات قصار.
رده بندی کنگره	۵ر ۵ ح/BP۴۳/۲
رده بندی دیویی	۲۹۷/۹۵۴
شماره کتابخانه ملی	۸۵ـ۲۴۲۱۹م

هوية الكتاب:

- اسم الكتاب: الرسول الأعظم على لسان حفيده.
- المؤلف: السيد محسن الحسيني الأميني
- الطبعة الأولى: ۱۴۲۷ ق – ۱۳۸۵ ش
- الكمية: ۳۰۰۰
- الناشر: پیام امام هادی عليه السلام
- المطبعة: اعتماد – قم – ایران
- السعر: ۸۰۰ تومان
- شابك: ۹۶۴-۸۸۳۷-۰۲-۳

ISBN: 964 - 8837 - 02 - 3

EAN: 9789648837025



الحمد لله ربّ العالمين و الصّلاة و السّلام على خاتم الأنبياء و المرسلين محمّد و على آله الطيّبين الطاهرين و صحبه الميامين.

و بعد:

فإن السيّد قائد الجمهوريّة الإسلاميّه آية الله الخامنهاي حفظه الله قد سمّى هذه السنة الهجريّة الشمسيّة أي عام ١٣٨٥ بـ «عام الرسول الأعظم» فرأينا من المناسب أن نذكر نبذة من حياته ﷺ بلسان حفيده زين العابدين و سيّد الساجدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، و قد ذكر ذلك على نهج الدعاء لأنّ الدعاء وسيلة الإرتباط بالله تعالى، و منهاج للتربية، تتأصّل به شخصيّة المسلم و تهذب أخلاقه و سلوكه، و يرقى بالإنسان إلى مدارج الكمال، و الإنعتاق من كلّ ألوان العبوديّة لغير الله تعالى، قال الله سبحانه و تعالى: «قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ»[1]

---

١ -الفرقان: ٧٧.

و نتيجة لهذا الدور المهم للدعاء، فقد استطاع هذا الإمام العظيم بما أوتي من بلاغة فريدة، و قدرة فائقة على أساليب التعبير العربي و ذهنيّة ربانيّة تتفتّق عن أروع المعاني و أدقّها في تصوير صلة الإنسان بربّه و وجده بخالقه و تعلّقه بمبدئه و معاده و تجسيد ما يعبّر عنه ذلك من قيم خليقّة و حقوق و واجبات، في كتابه المسمّى بالصحيفة السجاديّة فهي مسحة من العلم الإلهي، و فيها عبقة من الكلام النبوي، كيف لا و هي قبس من نور مشكاة الرسالة و نفحة من شميم رياض الإمامة، حتّى قال بعض العارفين: إنّها تجرى مجرى التنزيلات السّماويّة، و تسير مسير الصحف اللوحيّة و العرشيّة، لما اشتملت عليه من أنوار حقائق المعرفة و ثمار حدائق الحكمة، و كان أحبار العلماء و جهابذة القدماء من السلف الصالح يلقّبونها بـ«زبور آل محمّد»، و إنجيل أهل البيت عليهم السلام.

قال الشيخ الجليل محمّد بن علي بن شهراشوب في معالم العلماء في ترجمة المتوكّل بن عمير: روى عن يحيىٰ بن زيد بن علي عليه السلام دعاء الصحيفة و تلقّب بـ«بزبور آل محمّد عليهم السلام»[1] سمّاها عند ترجمته ليحيىٰ بن علي بن محمّد بن الحسين الرقّي بـ«إنجيل أهل البيت عليهم السلام»[2]

و أمّا بلاغة بيانها، و براعة تبيانها: فعندها تخضع سحرة الكلام، و تذعن بالعجز عقول الأعلام، و تعترف بأنّ النبوّة غير الكهانة، و لا يستوي الحق و الباطل في المكانة، و من حام حول سمائها بغاسق فكره الواقب رمى من رجوم الخذلان بشهاب ثاقب.

و هي مجموعة من الأدعية المأثورة عن الإمام زين العابدين و

١-معالم العلماء: ص ١٢٥، الرقم ٨٤٧.

٢-معالم العلماء: ص ١٣١، الرقم ٨٨٦

سيّد الساجدين، و قدوة المقتدين، إمام المؤمنين أبي الحسن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام من أئمّة أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرّجس و طهّرهم تطهيراً.

و هو الرابع من أئمّة أهل البيت، و جدّه الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب و صيّ رسول الله صلى الله عليه وآله و أوّل من أسلم، و كان منه بمنزلة هارون من موسى كما صحّ في الحديث.

و جدّته فاطمة الزهراء عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وآله و بضعته و فلذّة كبده و سيّدة نساء العالمين كما كان أبوها يصفها.

و أبوه الإمام الحسين عليه السلام أحد سيّدي شباب أهل الجنّة، سبط الرسول و ريحانته، و قال جدّه: «حسين منّي و أنا من حسين» و هو الذي استشهد في يوم عاشوراء دفاعاً عن الإسلام و المسلمين.

و أمّه شاه زنان بنت يزدجرد بن شهريار بن كسرى، و قيل: كان اسمها شهربانويه. و فيه يقول أبو الأسود الدئلي:

و إنّ غلاماً بين كسرى و هاشم لأكْرِم من نيطت عليه التمائم

و قد ولد الإمام علي بن الحسين عليه السلام بالمدينة سنة ثمان و ثلاثين من الهجرة قبل وفاة جدّه أمير المؤمنين عليه السلام بسنتين، فعاش في كنف جدّه سنتين، ثم نشأ في مدرسة عمّه الحسن عليه السلام اثنتي عشر سنة، و مع أبيه الحسين عليه السلام ثلاثاً و عشرين سنة، و عاش بعد أبيه أربعاً و ثلاثين سنة، و توفّي بالمدينة المنوّرة سنة خمس و تسعين للهجرة، و له يومئذ سبع و خمسون سنة، و دفن بالبقيع بجنب عمّه الحسن عليه السلام في القبّة التي فيها العباس بن عبد المطّلب رضي الله عنه.

و كان يقال له: ذو الثفنات جمع ثفنة بكسر الفاء. و هي من الإنسان

الركبة، و مجمع الساق و الفخذ، لأنّ طول السجود أثّر في ثفناته.

و برز على الصعيد العلمي و الديني إماماً في الدين، و مناراً في العلم، و مرجعاً في الحلال و الحرام، و مثلاً أعلى في الورع و العبادة و التقوى، و آمن المسلمون جميعاً بعلمه و استقامته و أفضليّته، و انقاد الواعون منهم إلى زعامته و فقهه و مرجعيّته.

قال الزهري: مارأيت هاشميّاً أفضل من علي بن الحسين و لا أفقه منه[١].

و قال في كلام آخر: ما رأيت قرشيّاً أورع منه و لا أفضل[٢].

و كان يصلّي في اليوم و الليلة ألف ركعة، و كانت الريح تميله بمنزلة السنبلة[٣].

و كان كثير الصدقة بالليل، و كان يقول: صدقة الليل تطفىء غضب الرّب، و تنوّر القلب و القبر، و تكشف عن العبد ظلمة يوم القيامة، و قد قاسم الله تعالى ماله مرّتين[٤].

و روى أبو الفرج الإصفهاني بإسناده عن أبي حمزة الثمالي قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يحمل جراب الخبز على ظهره فيتصدّق به، و يقول: إن صدقة الليل تطفىء غضب الرّب[٥].

١-الأغاني: ج ١٥، ص ٣١٥، و تذكرة الخواص لإبن الجوزي: ص ٣٣١، و الإرشاد للشيخ المفيد: ص ٢٥٧.

٢-البداية و النهاية: ج ٩، ص ١٠٩.

٣-الإرشاد للشيخ المفيد: ص ٢٥٦، و البداية و النهاية: ج ٩، ص ١١٠.

٤-البداية و النهاية: ج ٩ ص ١١٠، و حلية الأولياء: ج ٣ ص ١٣٦.

٥-الأغاني: ج ١٥، ص ٣١٥.

و في رواية: إنّه كان إذا جنّ الليل و هدأت العيون قام إلى منزله فجمع ما يبقى فيه من قوت أهله و جعله في جراب و رمى به على عاتقه و خرج إلى دور الفقراء و هو متلثّم، و يفرّق عليهم، و كثيراً ما كانوا قياماً على أبوابهم ينتظرونه، فإذا رأوه تباشروا به وقالوا: جاء صاحب الجراب[1].

و قال عمرو بن ثابت: لمّا مات علي بن الحسين عليه السلام فغسّلوه جعلوا ينظرون إلى آثار سواد بظهره فقالوا: ما هذا؟ فقيل: كان يحمل جرب الدقيق ليلاً على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة[2].

و قال محمّد بن اسحاق: كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم؟ فلمّا مات علي بن الحسين عليه السلام فقدوا ما كانوا يؤتون به في الليل[3].

و قال ابن عائشة: يقول أبي: سمعت أهل المدينة يقولون: ما فقدنا صدقة السرّ حتّى مات علي بن الحسين عليه السلام[4].

و قيل: إنّه كان يعول مائة أهل بيت بالمدينة و لا يدرون بذلك حتّى مات[5].

و في رواية أبو الفرج، عن جرير بن المغيرة، قال: كان علي بن الحسين

۱ـ المناقب لابن شهراشوب: ج ٤، ص ١٥٣.

۲ـ حلية الأولياء: ج ٣، ص ١٣٦، و المناقب لابن شهراشوب: ج ٤، ص ١٥٤.

۳ـ الأغاني: ج ١٥، ص ٣١٦، و حلية الأولياء: ج ٣، ص ١٣٦، و البداية و النهاية: ج ٩، ص ١١٠.

٤ـ حلية الأولياء: ج ٣، ص ١٣٦.

٥ـ البداية و النهاية: ج ٩، ص ١١٠، و المناقب لابن شهراشوب: ج ٤، ص ١٥٣، و حلية الأولياء: ج ٣، ص ١٣٦.

يبخل، فلمّا مات و جدوه يعول مائة أهل بيت بالمدينة[١].

و ذكروا أنّه احترق البيت الذي هو فيه و هو قائم يصلّي فلمّا انصرف قالوا له: مالك لم تنصرف؟.

فقال: إنّي اشتغلت عن هذه النار بالنار الأُخرى[٢].

و كان إذا توضأ يصفرّ لونه، فإذا قام إلى الصّلاة إرتعد من الفرق[٣].

قيل له في ذلك، فقال: ألا تدرون بين يدي من أقوم و لمن أُناجي؟[٤].

و نحوه جاء في تذكرة الخواص: عن عبد الرحمن بن حفص القرشي قال: كان علي بن الحسين إذا توضأ اصفرّ لونه، فيقال: ما هذا الذي يعتاك عند الوضوء؟.

فقال: أتدرون بين من أُريد أن أقف؟[٥].

و عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، قال: حجّ علي بن الحسين عليه السلام ماشياً فسار من المدينة إلى مكّة عشرين يوماً و ليلة[٦].

و عن زرارة بن أعين قال: لقد حجّ عليه السلام على ناقة عشرين حجّة فما قرعها بسوط[٧].

و في البداية و النهاية: و لمّا حجّ أراد أن يلبّي فارتعد وقال: أخشى أن

١-الأغاني: ج ١٥، ص ٣١٥.

٢-البداية و النهاية: ج ٩، ص ١١٠.

٣-الفرق: الخوف و الإضطراب.

٤-البداية و النهاية: ج ٩، ص ١١٠.

٥-تذكرة الخواص: ص ٣٢٧.

٦-الإرشاد للشيخ المفيد: ص ٢٥٦.

٧-المناقب لابن شهراشوب: ج ٤، ص ١٥٥.

أقول: لبّيك أللّهمّ لبّيك، فيقال لي: لا لبّيك، فشجّعوه على التلبية، فلمّا لبّى غشي عليه حتّى سقط عن الراحلة(١).

و عن زرارة بن أعين قال: سمع سائل في جوف الليل و هو يقول: أين الزاهدون في الدنيا، الراغبون في الآخرة؟، فهتف به هاتف من ناحية البقيع يسمع صوته و لا يرى شخصه: ذاك علي بن الحسين(٢).

و عن طاووس: إني لفي الحجر ليلة، إذ دخل علي بن الحسين عليه السلام فقلت: رجل صالح من أهل بيت النبوّة لأسمعنّ دعاءه، فسمعته يقول: عبيدك بفنائك، مسكينك بنفائك، فقيرك بفنائك.

قال: فما دعوت بهنّ في كرب إلّا فرّج عنّي(٣).

و كان عليه السلام كثير البرّ بأُمّه، فقيل له: إنّك أبرّ الناس بأُمّك و لسنا نراك تأكل معها في صحفة؟.فقال: أخاف أن تسبق يدي إلى ما سبقت إليه عينها، فأكون قد عققتها(٤).

و قيل له: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحنا خائفين برسول الله، وأصبح جميع أهل الإسلام آمنين(٥).

و قد كان للمسلمين عموماً تعلّق عاطفي شديد بهذا الإمام و ولاء روحي عميق له، و كانت قواعده الشعبيّة ممتدّة في كلّ مكان من العالم الإسلامي كما يشير إلى ذلك موقف الحجيج الأعظم منه حينما حجّ

١-البداية و النهاية: ج ٩، ص ١١٠.

٢-الإرشاد للشيخ المفيد: ص ٢٥٦.

٣-الإرشاد للشيخ المفيد: ص ٢٥٦، و البداية و النهاية: ج ٩، ص ١١٠.

٤-مكارم الأخلاق: ج ١، ص ٤٧٦، ح ١٦٣٨/ ٣٠.

٥-كشف الغمة: ج ٢، ص ٣١٨.

هشام بن عبد الملك و طاف و أراد أن يستلم فلم يقدر على إستلام الحجر الأسود من الزحام فنصب له منبر. فجلس عليه و أطاف به أهل الشام، فبينا هو كذلك إذ أقبل علي بن الحسين عليه السلام و عليه إزار و رداء من أحسن الناس وجهاً و أطيبهم رائحة فجعل يطوف فإذا بلغ إلى موضع الحجر انفرجت الجماهير و تنحّى حتّى يستلمه لعظيم معرفتها بقدره و حبّها له على اختلاف بلدانهم و إنتساباتهم. و سأل الشامي عنها قائلاً مَن هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا أعرفه لئلا يرغب فيه أهل الشام.

فقام الفرزدق قائلاً لكنّي أنا أعرفه.

فقال الشامي: مَن هو يا أبا فراس؟ فأشار الفرزدق به قائلاً:

يا سائلي أين حلّ الجود و الكرم؟
عندي بيان إذا طُلّابه قدموا
هذا الذي تعرف البطحاء[١] وطأته
و البيت[٢] يعرفه و الحلّ و الحرم
هذا ابن خير عباد الله كلّهم
هذا التقيّ النّقي الطاهر العلم
هذا الذي أحمد المختار والده
صلّى عليه إلهي ما جرى القلم
لو يعلم الركن مَن قد جاء يلثمه
لخرّ يلثم منه ما وطىء القدم

١- البطحاء: أرض منبسطة، و مسيل واسع في و سطها مكّة.

٢- و البيت: أي البيت العتيق، الكعبة.

هـــذا علـي رسـول الله والده
أمست بنور هداه تهتدي الأُمم
هــذا الذي عمّه الطيّار جعفر
و المقتول حمزة ليث حبّه قَسم
هـذا ابـن سيّدة النسوان فاطمة
و ابـن الوصي الذي في سيفه نقم
إذا رأته قريش قال قائلها:
إلى مكارم هــذا ينتهي الكرم
يكاد يمسكه عرفان راحته
ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
و ليس قولك مَن هذا بضائره
العرب تعرف مَن أنكرت و العجم
ينمي إلي ذروة العزّ التي قصرت
عن نيلها عرب الإسلام و العجم
يغضي[1] حياءً و يغضى من مهابته
فما يكلّم إلا حين يبتسم
ينجاب[2] نور الدّجى عن نور غرّته
كالشمس ينجاب عن إشراقها الظلم

١–أغضى عينيه: طبقَ جفنيها حتّى لا يبصر شيئا.

٢–ينجاب: أي ينكشف.

بكــــفّه خـــيزران[١] ريحــه عــبق[٢]
مـــن كـفّ أروع[٣] في عـرنينه[٤] شمـم[٥]

مـــا قـــال: لا قـــط إلّا في تــشهّده
لو لا التـــشهّد لكـــانت لاؤهُ نـــعم

مشـــتقّة مـــن رســـول الله نــبعته
طــابت عـناصره و الخـيم[٦] و الشـيم[٧]

حمّـــال أثـــقال أقـــوام إذا فــدحوا[٨]
حـــلو الشمائـــل تحـلو عـنده نـعم

إن قـــال قـــال بمـــا يهـــوى جمـــيعهم
و إن تكـــلّم يـــوماً زانـــه الكـــلم

هـــذا ابـــن فـــاطمة إن كـــنت جـــاهله
بجـــدّه أنـــبياء الله قـــد خـــتموا

الله فـــضّله قـــدماً و شرّفـــه
جـــرى بـــذاك له في لوحـــه القـــلم

١-الخيزران: القصب، شجر هندي و له عروق ممتدّة في الأرض.

٢-عبق ككتف: الذي تفوح منه رائحة الطيّبة، و رجل عبق: إذا تطيّب بأدنى طـيب لم يذهب عنه أياماً.

٣-الأروع: من يعجبك بحسنه.

٤-العرنين: الأنف.

٥-الشمم:إرتفاع قصبة الأنف وحسنها واستواء أعلاها، وهو كناية عن الرفعة والعلو.

٦-الخيم بالكسر: السجيّة و الطبيعة.

٧-الشيم بكسر الشين، جمع الشيمة: و هي الطبيعة.

٨-فدحه الدين: أي أثقله.

مـــن جـــدّه دان فـضل الأنـبياء له
و فـــضل أمّـــته دانت لهـــا الأمـــم

عـمّ البريّـة بـالإحسان و انـقشعت[١]
عـنها العـماية و الإمـلاق[٢] و الظـلم

كـلتا يـديه غـياث عـمّ نـفعهما
تسـتوكفان[٣] و لا يـعروهما عـدم

سهـل الخـليقة لا تخـشى بـوادره[٤]
يـزينه خـصلتان: الحـلم و الكـرم

لا يخـلف الوعـد ميموناً نـقيبته[٥]
رحب الفـناء أريب[٦] حـين يُـعترم[٧]

مِـن مـعشر حـبّهم: ديـن، و بـغضهم:
كـفر، و قـربهم: مـنجي، و مـعتصم

يسـتدفع السـوء و البـلوى بحـبّهم
و يسـتزاد بـه الإحسـان و النـعم

مـقدّم بـعد ذكـر الله ذكـرهم
في كـلّ فـرض ومخـتوم بـه الكـلم

١-انقشعت: أي انكشفت.

٢-أملق: أي أنفق ماله حتّى افتقر.

٣-تستوكفان: أي تستقطران.

٤-البوادر: جمع البادرة،و هي مايبدو من حدّة الإنسان في الغضب من قول أو فعل.

٥-النقيبة: نفاذ الرأي.

٦-الأريب: أي العاقل، الحاذق، الكامل.

٧-يعترم (على المجهول) من العرام بمعنى الشدّة، أي عاقل إذا أصابته الشدّة.

إنْ عـــدّ أهــل التُّــق كــانوا أئمّــتهم
أو قيل: مَن خـير أهـل الأرض؟ قـيل: هـم

لا يســـتطيع جـــواد بــعد غــايتهم
و لا يــــدانـــيهم قــوم وإنْ كــرموا

هـــم الغــيوث إذا مــا أزمّــة[1] أزمت
و الأسد أسد الشرى[2] و البأس محتدم[3]

يأبى لهـــم أن يحـــلّ الذمّ ســاحتهم
خـيم[4] كـريم و أيـد بـالندى[5] هُـضم[6]

لا يــقبض العــسر بســطاً مــن أكـفّهم
ســيّان ذلك إن أثــروا[7] و إن عــدموا

أيّ القـــبائل ليست في رقـــابهم؟
لأوّليّـــة هـــذا أو لــــهُ نـــعم؟

مـــن يــعرف الله يــعرف أوليّـــة ذا
فــالدّين مـــن بــيت هـــذا نــاله الأُمـم

١-الأزمّة: الشدّة.

٢-الشّرى: ناحية به غياض و آجام تكون فيها الأسود.

٣-المحتدم: شـدة الحـمرة في الدم، و الإلتهـاب في النـار، و المـراد: إن شـدّتهم و غضبهم ملتهب في الحرب.

٤-خيم: جمع الخيمة أي لهم خيم.

٥-الندى: أي المطر، و يستعار للعطاء الكثير.

٦-هُضُم (بضمتين) ككتب: جمع هضم، و يقال يد هضوم: أي تجود بما لديها.

٧-أثرى إثراءً: كثر ماله.

بيوتهم في قريش يستضاء بها
في النائبات و عند الحكم أن حُكموا
فجدّهم من قريش في أرومتها
محمّد و علي بعده علم
بدر له شاهد والشعب من أحد
و الخندقان[١] و يوم الفتح قد علموا
و خيبر و حنين يشهدان له
و في قريضة يوم صيلم[٢] قتم[٣]
مواطن قد علت في كلّ نائبة
على الصحابة لم أكتم كما كتموا

فغضب هشام و منع جائزته، و قال: ألّا قلت فينا مثلها؟

قال: هات جدّاً كجدّه، و أباً كأبيه، و أمّاً كأمّه حتّى أقول فيكم مثلها.

فحبسه بعسفان بين مكّة و المدينة، فبلغ ذلك علي بن الحسين عليه السلام فبعث إليه باثني عشر ألف درهم و قال: أعذرنا يا أبا فراس فلو كان عندنا أكثر من هذا لوصلناك به. فردّها و قال: يا ابن رسول الله ما قلت هذا الذي قلت إلّا غضباً للّه و لرسوله، و ما كنت لأرزأ عليه شيئاً.

فردّها الإمام الهمام و قال: بحقّي عليك لما قبلتها، فقد رأى الله مكانك

١-الخندقان: إشارة إلى غزوة الخندق، و وجه التثنية على ما قيل: إمّا لكون الخندق محيطاً بطرفي المدينة، أو لإنقسامه في الحفر بين المهاجرين و الأنصار.

٢-الصيلم: الأمر الشديد، و الداهية.

٣-القتم من القتام: بمعنى الغبار.

و علم نيّتك فقبلها. فجعل الفرزدق يهجو هشاماً و هو في الحبس، فكانّ ممّا هجاه به قوله :

أتحبسني بين المدينة و التي إليها قلوب الناس تهوى مُنيبها
تقلّب رأساً لم يكن رأس سيّد و عيناً له حولاء باد عيوبها

فأخبر هشام بذلك فأطلقه. و في رواية أبي بكر العلاف أنّه أخرجه إلى البصرة.

هذه القصيدة مروية بأسانيد و طرق متعدّدة وهي متواترة[١].

و الحقيقة أنّ الصحيفة السجاديّة تعبر عن عملٍ إجتماعي عظيم كانت ضرورة المرحلة تفرضه على الإمام إضافةً إلى كونها تراثاً ربّانيّاً فريداً يظلّ على مرّ الدهور مصدر عطاء، و مشعل هداية و مدرسة أخلاق و تهذيب، و من الواضح أنّ الإنسانيّة تظل بحاجة إلى هذا التراث المحمّدي العلوي و تزداد الحاجة كلّما إزداد الشيطان إغراءً و الدنيا فتنة.

فنظراً لأهمية هذه الصحيفة الشريفة آلّف العلماء حولها شروحاً كثيرة تبلغ سبعة و أربعين شرحاً كما ذكره صاحب الذريعة[٢].

و قد قام الفاضل النبيل و العلامة الأريب السيد علي خان الحسيني المدني الشيرازي ﷺ بشرحها شرحاً وافياً جامعاً يرتوي به كلّ ضمآن

١-انظر حلية الأولياء: ج ٣، ص ١٣٩، و الأغاني: ج ٢١، ص ٣٧٨، و البداية و النهاية: ج ٩، ص ١١٣، و المعجم الكبير: ج ٣، ص ١٠٦، تحت رقم «٢٨٠٠»، و مجمع الزوائد: ج ٩، ص ٢٠٠، و ابن عساكر في تاريخ دمشق: ص ٩١، و بحار الأنوار: ج ٤٦، ص ١٢٤، و المناقب لابن شهراشوب: ج ٤، ص ١٦٩، و غير ذلك من كثير الأعلام الذين نقلوا هذه القصّة.

٢-الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ج ١٣، ص ٣٤٥ - ٣٥٩.

لتلك المعارف الإلهية و المسائل العقائديّة و العرفانيّة و الإجتماعيّة و غيرها و سمّاه برياض السالكين.

و ها نحن نذكر بحول الله تعالى ما شرحه ﷺ من الدعاء الثاني للإمام زين العابدين عليه السلام الذي يذكر جدّه و يصلّي عليه راجين من الله العلي القدير أن يتقبّل هذا الجهد المتواضع، و أن يجعله مثمراً في سبيل نشر معارف مدرسة أهل البيت عليهم السلام و تراثهم الفكري.

و أن يوفّقنا لخدمة دينه و المساهمة في إعلاء كلمته و هو حسبنا و نعم الوكيل.

قم المشرّفة

السيد محسن الحسيني الاميني

١٥ جمادي الأُولى عام ١٤٢٧ هجـ



وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيْنَا بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ دُونَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ، بِقُدْرَتِهِ الَّتِي لَا تَعْجِزُ عَنْ شَيْءٍ وَ إِنْ عَظُمَ، وَ لَا يَفُوتُهَا شَيْءٌ وَ إِنْ لَطُفَ، فَخَتَمَ بِنَا عَلَى جَمِيعِ مَنْ ذَرَأَ، وَ جَعَلَنَا شُهَدَاءَ عَلَى مَنْ جَحَدَ، وَ كَثَّرَنَا بِمَنِّهِ عَلَى مَنْ قَلَّ.

اللَّهُمَّ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ أَمِينِكَ عَلَى وَحْيِكَ وَ نَجِيبِكَ مِنْ خَلْقِكَ، وَ صَفِيِّكَ مِنْ عِبَادِكَ، إِمَامِ الرَّحْمَةِ وَ قَائِدِ الْخَيْرِ وَ مِفْتَاحِ الْبَرَكَةِ، كَمَا نَصَبَ لِأَمْرِكَ نَفْسَهُ وَ عَرَّضَ فِيكَ لِلْمَكْرُوهِ بَدَنَهُ، وَ كَاشَفَ فِي الدُّعَاءِ إِلَيْكَ حَامَّتَهُ، وَ حَارَبَ فِي رِضَاكَ أُسْرَتَهُ، وَ قَطَعَ فِي إِحْيَاءِ دِينِكَ رَحِمَهُ، وَ أَقْصَى الْأَدْنَيْنَ عَلَى جُحُودِهِمْ، وَ قَرَّبَ الْأَقْصَيْنَ عَلَى اسْتِجَابَتِهِمْ لَكَ، وَ وَالَى فِيكَ الْأَبْعَدِينَ، وَ عَادَى فِيكَ الْأَقْرَبِينَ، وَ أَدْأَبَ نَفْسَهُ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَتِكَ، وَ أَتْعَبَهَا بِالدُّعَاءِ إِلَى مِلَّتِكَ، وَ شَغَلَهَا بِالنُّصْحِ لِأَهْلِ دَعْوَتِكَ، وَ هَاجَرَ إِلَى بِلَادِ الْغُرْبَةِ وَ مَحَلِّ النَّأْيِ عَنْ مَوْطِنِ رَحْلِهِ، وَ مَوْضِعِ رِجْلِهِ وَ مَسْقَطِ

رَأْسِهِ وَ مَأْنَسِ نَفْسِهِ، إِرَادَةً مِنْهُ لإِعْزَازِ دِينِكَ، و اَسْتِنْصَاراً عَلَى أَهْلِ الْكُفْرِ بِكَ، حَتَّى اَسْتَتَبَّ لَهُ مَا حَاوَلَ فِي أَعْدَآئِكَ، وَ اَسْتَتَمَّ لَهُ مَا دَبَّرَ فِي أَوْلِيَآئِكَ، فَنَهَدَ إِلَيْهِمْ مُسْتَفْتِحاً بِعَوْنِكَ، وَ مُتَقَوِّياً عَلَى ضَعْفِهِ بِنَصْرِكَ، فَغَزَاهُمْ فِي عُقْرِ دِيَارِهِمْ، وَ هَجَمَ عَلَيْهِمْ فِي بُحْبُوحَةِ قَرَارِهِمْ، حَتَّى ظَهَرَ أَمْرُكَ وَ عَلَتْ كَلِمَتُكَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ.

أَللَّهُمَّ فَارْفَعْهُ بِمَا كَدَحَ فِيكَ إِلَىٰ اَلدَّرَجَةِ الْعُلْيَا مِنْ جَنَّتِكَ، حَتَّى لاَ يُسَاوَىٰ فِي مَنْزِلَةٍ وَ لاَ يُكَافَأُ فِي مَرْتَبَتِهِ، وَ لاَ يُوَازِيَهُ لَدَيْكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَ لاَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَ عَرِّفْهُ فِي أَهْلِهِ الطَّاهِرِينَ وَ أُمَّتِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حُسْنِ اَلشَّفَاعَةِ أَجَلَّ مَا وَعَدْتَهُ، يَا نَافِذَ الْعِدَةِ، يَا وَافِيَ الْقَوْلِ، يَا مُبَدِّلَ اَلسَّيِّئَاتِ بِأَضْعَافِهَا مِنَ الْحَسَنَاتِ، إِنَّكَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

* * *

وَ كَانَ مِنْ دُعَائه عَلَيه السَّلام بَعد هَذا التحميدِ في الصَّلاة عَلى رَسُولِ اللّهِ ﷺ

الكلام في هذا المقام يستدعي مباحث:

الأوّل: إختلف العلماء في إشتقاق الصّلاة: فقيل: من صليت العود بالنار إذا ليّنته و قوّمته لأنّ المصلّي يلين بالحنو[1] و العطف، و يسعي في تعديل ظاهره و تقويم باطنه، كالخشب الذي يعرض على النار.

و قيل: من الصلوين، و هما عرقان من جانبي الذنب، و عظمان ينحنيان عند الإنحناء، فناسب أن يراد بها الحنو و الإنعطاف المعنويّين[2].

و قال الزمخشري في الكشاف: الصّلاة فعلة مِن صلّى - كالزكاة - مِن زكّى، و كتبتا بالواو على لفظ المفخم، و حقيقة صلّى حرّك الصلوين لأنّ المصلّي يفعل ذلك في ركوعه و سجوده[3].

و قيل: بل أصل الصّلاة في اللّغة: بمعنى الدعاء.

و يؤيّده: بأنّ الصّلاة بهذا المعنى في أشعار الجاهليّة كثيرة الإستعمال.

الثاني: قال الجمهور: الصّلاة من الله تعالى: الرّحمة، و من الملائكة الإستغفار، و من الآدميين: الدعاء.

الثالث: معنى الصّلاة على رسول الله ﷺ تعظيمه في الدنيا بإعلاء كلمته و إبقاء شريعته، و في الآخرة بتضعيف مثوبته و الزيادة في درجته.

قيل: و غاية الدعاء بذلك عائدة إلى المصلي، لأنّ الله تعالى قد أعطاه من إعلاء الكلمة و علوّ الدرجة و رفع المنزلة ما لا يؤثر فيه صلاة مصلٍ

١- الحنو: الشفقة.

٢- تهذيب الأسماء و اللغات: الجزء الأول من القسم الثاني ص ١٧٩.

٣- الكشاف: ج ١، ص ٤٠.

و لا دعاء داعٍ.

و قيل: بل غايته طلب زيادة كماله عليه السلام و قربه من الله تعالى، إذ مراتب إستحقاق نعم الله عزّ وجلّ غير متناهية.

الرابع: الصّلاة عليه صلى الله عليه وآله في غير الصّلاة و عند عدم ذكره مستحبّة عند جميع أهل الإسلام، و لا يعرف من قال: بوجوبها غير الكرخي فإنّه أوجبها في العمر مرّة كما في الشهادتين. و أما في الصّلاة فأجمع علماؤنا رضوان الله عليهم على وجوبها في التشهدين معاً.

قال الشافعي[1]: و هي مستحبّة في الأول و واجبة في الثاني[2].

١-هو أبو عبد الله محمّد بن إدريس بن العباس، ينتهي نسبه إلى عبد مناف.

و الشافعي أحد أئمّة المذاهب الأربعة، ولد سنة ١٥٠ هجـ بغزّة، و نشأ بمكة، و كتب العلم بها و بالمدينة، و كان شديد التشيع و هو القائل:

إن كان رفضاً حبّ آل محمّد　　فليشهد الثقلان إنّي رافضي

و له حول الولاية أشعار كثيرة و مدائح غفيرة، منها: هذان البيتان المشهوران:

يا أهل بيت رسول‌الله حبّكم　　فرض من الله في‌القرآن أنزله

كفاكم من عظيم القدر أنكم　　من لا يصلّي عليكم لا صلاة له

و منها:

إذا في مجلس ذكروا عليّاً　　و شبله و فاطمة الزكيّة

يقال تجاوزوا يا قوم هذا　　فهذا من حديث الرافضيّة

هربت إلى المهيمن من أناسٍ　　يرون الرفض حبّ الفاطميّة

على آل الرسول صلاة ربي　　و لعنته لتلك الجاهليّة

٢-بداية المجتهد و نهاية المقتصد: ج ١، ص ٣٢، و الفقه على المذاهب الاربعة: ج ١، ص ٢٣٦ و ٢٤٤.

و قال أبو حنيفة[١] و مالك[٢]: مستحبّة فيهما معاً[٣].

و أما عند ذكره ﷺ فظاهر كثير من الأخبار كقوله ﷺ: من ذكرت عنده و لم يصلّ عليّ دخل النّار، و من ذكرت عنده فنسي الصّلاة عليّ خطىء به طريق الجنّة[٤].

و قوله: من ذكرت عنده و لم يصلّ عليّ فدخل النار فأبعده الله[٥].

إنها تجب كلّما ذكر، وكلّما سمع ذكره، لأنّ الوعيد امارة الوجوب، و هو مختار ابن بابويه و المقداد من أصحابنا، والطحاوي من العامة.

قال الزمخشري: و هو الذي يقتضيه الإحتياط[٦].

ومنهم من أوجبها في كلّ مجلس مرّة، و منهم من أوجبها في العمر مرّة.

و قال المحقق الأردبيلي: لا شكّ أنّ إحتياط الزمخشري أحوط، و

١-هو النعمان بن ثابت بن زوطى أحد أصحاب المذاهب الأربعة صاحب الرأي والقياس والفتاوى المعروفة في الفقه، ولد سنة ثمانين و مات سنة مائة و خمسين هجري في بغداد. و دفن في مقبرة الخيزران، و عاش سبعين سنة، و تتلمذ على يد الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام حيث قال عنها: لو لا السنتان لهلك النعمان.

٢-هو أبو عبد الله مالك بن أنس أحد أصحاب المذاهب الأربعة، ولد في المدينة المنوّرة سنة ٩٥ هجرية، و توفي سنة ١٧٩ هجريّة و دفن بالبقيع في المدينة، و تتلمذ على يد الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام كما جاء في مقدمة الموطأ، و الموطأ كتاب جمع فيه الأحاديث النبويّة والفقه معاً.

٣-الفقه على المذاهب الأربعة: ج ١، ص ٢٤٢ - ٢٤٣، و بداية المجتهد و نهاية المقتصد: ج ١، ص ١٣٢.

٤-الكافي: ج ٢، ص ٤٩٥، ح ١٩، و ثواب الأعمال: ص ٢٠٦، باب ٨، ح ١.

٥-الكافي: ج ٢، ص ٤٩٥، ح ١٩.

٦-الكشاف: ج ٣، ص ٥٥٨.

يمكن إختيار الوجوب في مجلس إن صلّى آخراً، و إن صلّى ثم ذكر يجب أيضاً كما في تعدّد الكفّارة في تعدّد الموجب إذا تخلّلت، و إلا فلا إنتهى[١].

و الحق: إنّ هذه التفاصيل عريّة عن المستند. فالقول بشيىء منها تحكّم به.

و الأولى: الوجوب عند كلّما ذكر، للأخبار الكثيرة الصريحة بالأمر بها كلّما ذكر، و الأصل في الأمر: الوجوب.

و أما القول بالإستحباب مطلقاً كما ذهب إليه جماعة مستدلّين بالأصل و الشهرة المستندين إلى عدم تعليمه ﷺ للمؤذنين و تركهم ذلك مع عدم وقوع نكير عليهم كما يفعلون الآن و لو كان لنُقل.

ففيه: إنّ عدم التعليم ممنوع، و كذا عدم النكير، كعدم النقل.

فقد روى ثقة الإسلام الكليني ﷺ في الكافي في باب بدء الأذان و الإقامة بإسناده عن أبي جعفر ﷺ: إذا أذنت فأفصح بالألف و الهاء و صلّ على النبيّ ﷺ كلّما ذكرته، أو ذكره ذاكر في أذان و غيره[٢].

على أنّ عدم النقل لا يدلّ على عدمه، و أصالة البرائة لا يصحّ التمسّك بها بعد ورود القرآن و الأخبار به.

ثم الظاهر من بعض الأخبار كقول الصادق ﷺ: إذا ذكر النبي ﷺ فأكثروا الصّلاة عليه[٣].

حيث رتّب الأمر بالصّلاة على الذكر بالفاء التعقيبيّة هو إيقاعها على الفور، فلو أهمل الفور أثم على القول بالوجوب و لم تسقط، و كذا الظاهر

١-زبدة البيان في أحكام القرآن: ص ٨٦ و فيه: بتعدّد الموجب.

٢-الكافي: ج ٣، ص ٣٠٣، ح ٧.

٣-الكافي: ج ٢، ص ٤٩٢، ح ٦.

أنّ الأمر بها عام لكلّ أحد و على كلّ حالة حتّى في الصّلاة فلو ترك الإمتثال واشتغل بالقراءة فيها هل تبطل الصّلاة على تقدير الوجوب أم لا؟

فإن قلنا: إنّ الأمر بالشيىء نهي عن ضده الخاص، و النهي في العبادة يقتضي الفساد بطلت، و إن قلنا بعدمه فلا و هو الراجح.

فلو تكرّر الذّكر تكراراً بحيث يخرج بالإشتغال بالصّلاة عليه صلى الله عليه وآله عن كونه مصلّياً، لا يبعد القول بسقوط التكليف بها، لأنّ الفعلين إذا تضيّقا و تعذّر الجمع بينهما علمنا أنّ أحدهما ليس بواجب قطعاً، و لمّا كان مشتغلاً بالصّلاة و وجب إتمامها و الإستمرار فيها، كان ما ينافيه غير مأمور به ليتأمل.

الخامس: إنّما كان عليه السلام يدعو بالصّلاة عليه صلوات الله عليه و على آله بعد التحميد لما ورد في ذلك عن جدّيه عليهما السلام، فعن أبي عبد الله عليه السلام: إنّ رجلاً دخل المسجد فصلّى ركعتين، ثم سأل الله عزّوجلّ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أعجل العبد ربّه.

و جاء آخر فصلّى ركعتين، ثم أثنى على الله عزّوجلّ و صلّى على النبي صلى الله عليه وآله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: سل تعط[1].

و عنه عليه السلام: إنّ في كتاب علي عليه السلام: إنّ الثناء على الله، و الصّلاة على رسوله قبل المسألة[2].

و لو لم يرد ذلك لكان فعله عليه السلام أيضاً حجّة و سنّة ينبغي اقتفاؤها، ثم الصّلاة على النبي صلى الله عليه وآله من أعظم شروط الإجابة.

روى ثقة الإسلام في الكافي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

---

١ ـ الكافي: ج ٢، ص ٤٨٥، ح ٧، و فيه «عجّل العبد ربّه».

٢ ـ الكافي: ج ٢، ص ٤٨٥، ح ٧.

لايزال الدعاء محجوباً حتّى يصلّي على محمّد و آل محمّد(١).

و عنه عليه السلام: من دعا و لم يذكر النبي صلى الله عليه وآله رفرف الدعاء على رأسه، فإذا ذكر النبي صلى الله عليه وآله رفع الدعاء(٢).

قال العلماء: و السرّ في قبول الدعاء إذا قرن بالصّلاة، أمران:

الأوّل: أنّ النبي و آله عليهم السلام و سائط بين الله سبحانه و بين عباده في قضاء حوائجهم و نجاح مطالبهم، و هم أبواب معرفته عزّوجلّ. فلابدّمن التوسّل بذكرهم في عرض الدعاء و قبوله لديه، و ذلك كما إذا أراد أحد من الرعيّة إظهار حاجته على السلطان توسّل بمن يعظّمه و لا يردّ قوله.

الثاني: إذا ضمّ العبد الصّلاة مع دعائه، و عرض المجموع على الله تعالى فلمّا كانت الصّلاة غير محجوبة، فالدعاء ايضاً لابدّ أن لا يكون محجوباً، لأنّه تعالى أكرم من أن يقبل الصّلاة و يردّ الدعاء فيكون قد قبل الصحيح و ردّ المعيب، كيف و قد نهى تعالى عباده عن تبعيض الصفقة! و لايمكن ردّ الجميع لكرامة الصّلاة عليه، فلم يبق إلا قبول الكلّ و هو المطلوب.

و في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام إذا كانت لك إلى الله سبحانه حاجة، فابدأ بمسألة الصّلاة على النبي صلى الله عليه وآله، ثم إسأل حاجتك فإنّ الله أكرم من أن يسأل حاجتين فيقضي إحداهما و يمنع الأخرى(٣).

السادس: الأخبار في فضل الصّلاة عليه صلى الله عليه وآله أكثر من أن تحصى:

فمنها: ما رواه ثقة الإسلام في الكافي: عن أبي عبد الله عليه السلام إنّه قال: إذا

١-الكافي: ج ٢، ص ٤٩١، ح ١.

٢-الكافي: ج ٢، ص ٤٩١، ح ٢.

٣-نهج البلاغة: ص ٥٣٨، الحكمة: ٣٦١.

ذكر النبي صلى الله عليه وآله فأكثروا الصّلاة عليه فإنّه من صلّى على النبي صلاة واحدة صلّى الله عليه ألف صلاة في ألف صفّ من الملائكة، و لم يبق شيء ممّا خلقه الله إلا صلّى على العبد لصلاة الله عليه و صلاة ملائكته، فمن لم يرغب في هذا فهو جاهل مغرور قد برأ الله منه و رسوله و أهل بيته[1].

و عنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من صلّى عليّ صلّى الله عليه و ملائكته، فمن شاء فليقلّ، و من شاء فليكثر[2].

و عنه عليه السلام: من صلّى على محمّد و آل محمّد عشراً صلّى الله عليه و ملائكته ألفاً، أما تسمع قول الله عزّوجلّ: «هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَ مَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَ كَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا»[3][4].

و عن أحدهما عليهما السلام قال: ما في الميزان شيء أثقل من الصّلاة على محمّد و آل محمّد، و أن الرجل لتوضع أعماله في الميزان فتميل به فيخرج صلى الله عليه و آله - الصّلاة عليه - فيضعها في ميزانه فترجح [به][5].

و عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله إرفعوا أصواتكم بالصّلاة عليّ فإنّها تذهب بالنفاق[6].

السابع: ما وقع في عنوان هذا الدعاء من قوله صلى الله عليه وآله بالعطف على

١-الكافي ج ٢، ص ٤٩٢، ح ٦.

٢-الكافي: ج ٢، ص ٤٩٢، ح ٧.

٣-الأحزاب: ٤٣.

٤-الكافي: ج ٢، ص ٤٩٣ - ٤٩٤، ح ١٤.

٥-الكافي: ج ٢، ص ٤٩٤، ح ١٥.

٦-الكافي: ج ٢، ص ٤٩٣، ح ١٣.

الضمير المجرور من دون إعادة الخافض، مبني على مذهب الكوفيين، و يونس، و الأخفش من البصريّين، من عدم وجوب إعادة الخــافض في ذلك خلافاً لجمهور البصريين و اختاره الشلوبين، و صحّحه ابن مالك، و أبو حيّان و جرى عليه ابن هشام في شرح الشذور[١].

و التوضيح لثبوت ذلك في فصيح الكلام كقراءة حمزة: «وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِ وَٱلْأَرْحَامَ»[٢] بخفض الأرحام[٣] عطفاً على الضمير المخفوض بالباء، و حكاية قطرب: ما فيها غيره و فرسه بخفض الفرس عطفاً على الهاء المخفوضة بإضافة غير إليها و قول الشاعر:

فاذهب فما بك و الأيّام من عجب[٤]

بخفض الأيّام عطفاً على الكاف المخفوظة بالباء، و إلى ذلك أشار ابن مالك بقوله في الخلاصة:

و عود خــافضٍ لَـدى عَـطْف عَـلى
ضَـــمير خَـفْض لازِمــاً قَـدْ جُـعِلا
وَ لَيْسَ عِـــنْدِي لازِمــاً إذْ قَــد أتى
في النَّثْرِ و النَّظمِ الصَحيح مـثبتاً[٥]

أمّا ما زعمه بعضهم: من أنّ الشيعة تلتزم عدم إعادة الخافض و هو

١-شذور الذهب: ص ٣٣٢.

٢-النساء: ١.

٣-مجمع البيان: ج ٣ - ٤، ص ١.

٤-مجمع البيان: ج ٣ - ٤، ص ٢، أنشده سيبويه، و صدر البيت:

فاليوم قربت تهجونا و تشتمنا.

٥-كتاب السيوطي: ص ١٦٧ - ١٦٨.

«على» في مثل هذه العبارة، لحديث يأثرونه و هو: «من فصّل بيني و بين آلي بـ -على- فقد جفاني» فزعم محض لا عين له و لا أثر، إذ لا تعرف الشيعة هذا الخبر و لم ترد به رواية من طرقهم، بل و لم يذكروا و لا منقطعاً في شيء من كتبهم، كيف و الأدعية المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام مشحونة بإعادة الخافض في مثل ذلك كما ستقف عليه مكرّراً في أدعية الصحيفة الشريفة والله المستعان.

* * *

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيْنَا بِمُحَمَّدٍ

نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ دُونَ

الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ.

«الواو» عاطفة للجملة على قوله في الدعاء السابق: ثم له الحمد، لأنّه عليه السلام كان يصل هذا الدعاء به من غير فصل كما هو ظاهر العنوان أو هي استئنائية.

و معنى «المنّ» ها هنا: الإنعام على من لا يطلب الجزاء منه، و فيه إشارة إلى قوله تعالى: «لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ»[1].

و «محمّد» علم منقول من الصفة التي معناها كثير الخصال المحمودة.

قال أهل اللغة: رجل محمّد: أي كثير الخصال المحمودة[2].

و قال ابن فارس: سمّي نبيّنا محمّد صلى الله عليه و آله محمّداً لكثرة خصاله المحمودة[3]. يعني ألهم الله تعالى أهله تسميته بذلك لما علم من خصاله الحميدة.

و قال السهيلي: في «محمّد» معنى المبالغة و التكرار، فالمحمّد هو الذي حمد مرّة بعد مرّة، كما أنّ المكرّم من كُرم مرّة بعد أُخرى، و كذلك الممدوح، و اسم محمّد مطابق لمعناه.

و الله تعالى سمّاه به قبل أن يسمّى به، و هو علم من أعلام نبوّته،

١-آل عمران: ١٦٤.

٢-تهذيب الأسماء واللغات: الجزء الأوّل من القسم الثاني: ص ٧٠.

٣-معجم مقاييس اللغة: ج ٢، ص ١٠٠.

إذ كان اسمه صادقاً عليه فهو ﷺ محمود في الدّنيا بما هدي إليه و نفع به من العلم و الحكمة، و هو محمود في الآخرة بالشفاعة، فقد تكرّر فيه معنى الحمد كما يقتضيه اللفظ إنتهى[١].

و ورد في أخبار كثيرة من طرق أهل البيت عليهم السلام عنه ﷺ أنّه قال: «سمّاني الله من فوق عرشه، و شقّ لي إسماً من أسمائه فسمّاني محمّداً و هو محمود»[٢].

و أخرج البخاري في تاريخه الصغير: من طريق علي بن زيد، قال: كان أبو طالب يقول:

وَشـقّ مِـنْ إسمِـهِ ليُـجلّهُ   فذوالعَرشِ مَحْمُودٌ وَهذا مُحمّد[٣]

قال القسطلاني في المواهب: و قد سمّاه الله تعالى بهذا الإسم قبل الخلق بألفي عام، كما ورد من حديث أنس بن مالك من طريق أبي نعيم في مناجاة موسى عليه السلام[٤].

قال ابن قتيبة: و من أعلام نبوّته ﷺ إنّه لم يسمّ أحد قبله بإسمه محمّد، صيانة من الله بهذا الإسم كما فعل بيحيى إذ «لَمْ نَجْعَل لَهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً»[٥].

و ذلك أنّه تعالى سمّاه في الكتب المتقدّمة و بشّر به الأنبياء، فلو جعل

١-تاج العروس: ج ٢، ص ٣٣٩، من غير ان ينسبه إلى أحد.

٢-بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٩٢، ح ٢٧، و الخصال: ص ٤٢٥، ح ١، و معاني الأخبار: ص ٥٠، ح ١، و شق: أي فصّل.

٣-شرح المواهب: ج ٣، ص ١٥٥. نقلاً عنه.

٤-شرح المواهب: ج ٣، ص ١٥٦.

٥- مريم: ٧.

إسمه مشتركاً فيه لوقعت الشبهة، إلاّ أنّه لمّا قرب زمانه و بشّر أهل الكتاب بقربه سمّى قوم أولادهم بذلك رجاء أن يكون هو «ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ»(١)(٢).

و هو أبو القاسم محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب، خاتم النبيين، و سيّد المرسلين، حملت به أمّه في أيّام التشريق في شعب أبي طالب عند الجمرة الوسطى ليلة الجمعة، و هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرّة، و ولد صلى الله عليه وآله بمكة يوم الجمعة عند طلوع الشّمس السابع عشر من شهر ربيع الأوّل عام الفيل وفاقاً لما عليه جمهور الشيعة.

و عند جمهور العامة: أنّه ولد يوم الإثنين من ربيع الأوّل ثم اختلفوا، فقيل: لليلتين خلتا منه، و قيل: لثمان خلون منه، و قيل: لعشرة، و قيل لاثنتي عشرة ليلة، و عليه عمل أهل مكّة في زيارتهم موضع مولده في هذا الوقت و وافقهم على ذلك من أصحابنا ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب الكليني في الكافي(٣).

و قيل: ولد يوم عاشوراء، و قيل: في صفر، و قيل: في ربيع الآخر، و قيل: في رجب، و قيل في شهر رمضان.

و روي عن ابن عباس بإسناد لا يصح، و هو موافق للقول بأنّ أمّه حملت به في أيّام التشريق(٤).

و أمّا على المشهور بأنّه ولد في ربيع الأوّل، فيلزم منه الإشكال

١-الأنعام: ١٢٤.

٢-شرح المواهب: ج ٣ ص ١٥٨، نقلاً عن ابن قتيبه.

٣-الكافي: ج ١، ص ٤٣٩.

٤-الكافي: ج ١، ص ٤٣٩.

المشهور، و هو أنّه يلزم أن يكون مدّة حمله ثلاثة أشهر، أوسنة و ثلاثة أشهر، و هذا مخالف لما إتّفق عليه الأصحاب من أنّ مدّة الحمل لا تزيد عن سنة، و لم ينقل أحد أنّ ذلك من خصائصه.

و الجواب: إنّ المراد بأيّام التشريق: الأيّام المعلومة من شهر جمادي الأولى، الذي وقع فيه حج المشركين في عام الفيل باعتبار النسيىء حيث كانوا يؤخّرون الحج عن ذي الحجّة فيحجّون سنتين في محرم و سنتين في صفر و هكذا إلى أن يتمّ الدور ثم يستأنفونه.

و على القول بأنّ مولده كان في ثاني عشر من شهر ربيع الأوّل يكون مدّة الحمل عشرة أشهر بلا زيادة و لا نقصان إذا فرض أنّ حمله كان في ثاني عشر من جمادي الأولى و الله أعلم.

و نقل عن أبي معشر البلخي: و هو من مهرة علم النجوم، أنّه استخرج طالع النبي ﷺ فكان عشرين درجة من الجدي حين كان زحل و المشتري في ثالث درجة من العقرب مقترنين في درجة وسط السماء، و المرّيخ في بيته في الحمل، و الشمس أيضاً في الحمل في الشرف، و الزهرة في الحوت، في الشرف، و عطارد أيضاً في الحوت، و القمر في أوّل الميزان، و الرأس الجوزاء في الشرف، و الذنب في قوس في الشرف، في بيت الأعداء، ذكر ذلك في روضة الأحباب[١].

و مات أبوه عبد الله بن عبد المطّلب، و هو ابن شهرين أو سبعة أشهر و لمّا بلغ أربعاً أو ستّاً من السنين ماتت أمّه، و كان في حجر جدّه عبد المطّلب ثماني سنين و شهرين و عشرة أيّام، فتوفّي عبد المطّلب و وليه

١-روضة الأحباب: كتاب فارسي نقل عنه المجلسي (قدس سره) في بحار الأنوار: ج ١٥، ص ٢٤٩.

عمّه أبو طالب ﷺ و ذهب به إلى الشام بعد ما تمّ له اثنتا عشرة سنة و شهران وعشرة أيّام، و رجع من بصرى و خرج إلى الشام مرّة أخرى مع ميسرة غلام خديجة في تجارة لها قبل أن يتزوّجها، ثم تزوّجها بعد ما بلغ خمساً و عشرين، و بقيت معه ثمانية عشرة سنة.

و لمّا بلغ خمساً و ثلاثين شهد بنيان الكعبة، فلمّا بلغ أربعين سنة بعثه الله رحمة للعالمين بشيراً و نذيراً يوم الإثنين لثمان خلون من شهر ربيع الأوّل، فما من شجر و حجر إلا سلّم عليه قائلاً: السلام عليك يا رسول الله، و فرض عليه التبليغ و قراءة القرآن.

و لمّا تمّت له إحدى و خمسون سنة و تسعة أشهر أسري به «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ»[1] و فرض عليه خمس الصلوات.

و لمّا بلغ ثلاثاً و خمسين هاجر إلى المدينة يوم الإثنين لثمان خلون من شهر ربيع الأوّل، و دخلها ضحى يوم الإثنين، و أُذن له في الجهاد في السنة الثانية لمن إبتدأه في غير الأشهر الحرم، ثم أُبيح له إبتداؤهم فيها أيضاً و فيها، فرض صوم شهر رمضان.

و اختلفوا في الزّكاة هل فرضت قبله أو بعده؟ و فرض الحجّ في السنة الخامسة أو السادسة؟ و في السنة الخامسة كانت بيعة الرضوان، و في الثامنة فتح مكّة، و أظلت عليه حمامها[2] يومئذ فدعا لها بالبركة، و في العاشرة حجّة الوداع و كانت وقفة عرفة فيها يوم الجمعة بالإجماع، و لم يحجّ بعد الهجرة إلا إيّاها و قبلها لم يضبط، و اعتمر أربعاً، و كانت غزواته سبعاً و عشرين، و سراياه ستّاً و خمسين، و قيل: غير ذلك.

---

١ ـ النجم: ٨ ـ ٩.

٢ ـ ظلّت عليه: أي أقبلت إليه و دنت منه، كناية عن قبول دعوة النبي ﷺ.

و تزوّج إحدى و عشرين إمرأة، و طلّق ستّاً، و ماتت عنده خمس، و توفي عن عشر واحدة منهنّ لم يدخل بها، و أولاده ستّة ذكران و هما: القاسم و إبراهيم، و أربع بنات: و هنّ فاطمة ﷺ، و زينب، و رقيّة، و أُم كلثوم، و كلّهم من خديجة ﷺ، إلّا إبراهيم، هذا هو المتّفق عليه، و اختلف فيما سوى هؤلاء.

و لمّا بلغ ﷺ ثلاثاً و ستّين، و قيل: خمساً و ستّين إختاره الرفيق الأعلى يوم الإثنين لليلتين بقيتا من صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة.

و قيل: لثنتي عشرة خلت من أوّل ربيعي السنة المذكورة، و دفن ليلة الثلاثاء أو الأربعاء في حجرته التي قبض فيها.

هذه نُبذة ممّا ذكره أرباب السير. و في كون و فاته يوم الإثنين ثاني عشر أوّل الربيعين مع كون و قفة عرفة يوم الجمعة في السنة العاشرة إشكال يعرف بالتأمل.

قوله ﷺ: «دون الأمم الماضية» (دون): بمعنى التجاوز فهي ظرف مستقر وقع حالاً من ضمير المتكلّمين في علينا، و العامل فيه «مَنّ» أي منّ علينا بمحمّد ﷺ، حال كوننا متجاوزين الأُمم الماضية في «المنّة به علينا».

و قد يقال: إنّها مستعارة من معناها الوضعي الذي هو أدنى مكان من شيء لقدّامه. كما في قول الأعشى:

تريك القذى من دونها و هي دونه[1]

أي تريك القذى قدّامها و هي قدّامه، فيكون ظرفاً لغواً معمولاً

---

١ - لسان العرب: ج ١٣، ص ١٦٥، و تمام البيت:

إذا ذاقها من ذاقها يتمطّق.

لـ«منّ» و المعنى: مـنّ عـلينا بمـحمّد ﷺ بـين يـدي الأُمـم المـاضية: أي في مستقبلها.

و في القاموس: إنّها بمعنى أمام و وراء و فوق فهو «ضدّ»[١].

و على هذا فلا حاجة إلى دعوى الإستعارة، و كما يصحّ جعلها هنا بمعنى أمام يصحّ جعلها بمعنى وراء أيضاً و هو واضح.

و «الأُمم» جمع أمّة و هي الجماعة، و أصلها القصد من أمّه يأمّه، أمّاً: إذا قصده، كأنّهم قصدوا أمراً واحداً وجهة واحدة، و تأتي لمعان: الجماعة مطلقاً، و جماعة أُرسل إليهم رسول، و يقال لكـل جـيل مـن النـاس و الحيوان أُمّة و منه: لو لا أنّ الكلاب أمّة تسبّح لأمرت بقتلها[٢].

و منه: إنّ إبراهيم عليه السلام كان أُمّة واحدة كما في قوله تعالى: «إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً»[٣] و بمعنى حين، و منه: «وَ ٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ»[٤].

و قوم الرجل: خلق الله، و أُمّة النبي نوعان:

أُمّة الإجابة: و هم الذين أجابوا دعوته، و صدّقوا نبوّته، و آمنوا بما جاء به، و هٰؤلاء هم الذين جاء مدحهم بالكتاب و السنّة: كقوله تعالى: «جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطاً»[٥]، «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ»[٦] و كقوله ﷺ: «شفاعتي

١-القاموس المحيط: ج ٤، ص ٢٢٣.

٢-النهاية لابن الأثير: ج ١، ص ٦٨.

٣-النحل: ١٢٠.

٤-يوسف: ٤٥.

٥-البقرة: ١٤٣.

٦-آل عمران: ١١٠.

لأهل الكبائر من أمتي»(١). و «إنّ أمتي يأتون يوم القيامة غرّاً محجّلين»(٢). و غير ذلك.

و أمّة الدعوة: و هم الذين بعث إليهم النبي صلى الله عليه وآله من مسلم و كافر، و منه قوله صلى الله عليه وآله: «و الذي نفس محمّد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمّة يهودي و لا نصراني ثم يموت و لم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النّار»(٣).

و قوله عليه السلام: «والقرون السالفة» القرون: جمع قرن.

قال الهروي: القرن: كلّ طبقة مقترنين في وقت، و منه قيل لأهل كلّ مدّة أو طبقة بعث فيها نبي قلّت السنون أو كثرت: قرن، و منه الحديث: «خيركم قرني» يعني أصحابي، «ثم الذين يلونهم» يعني التابعين لهم بإحسان، و إشتقاقه: من الإقتران، و قيل القرن: ثمانون سنة، و قيل: أربعون، و قيل: مائة، و قال ابن الأعرابي: (القرن) الوقت، و قال غيره: قيل للزمان قرن لأنّه يقرن أمّة بأمّة، و عالماً بعالم، و هو مصدر قرنت جعل إسماً للوقت أو لأهله(٤). هذا آخر كلام الهروي.

و فيه أقوال أخر، قال بعضهم: و الذي أرى – أنّ القرن –: كلّ أمّة هلكت فلم يبق منها أحد.

«و السالفة» المتقدّمة من سلف فلان من باب – قعد – سلوفاً: تقدّم، و منه سلف الرجل لآبائه المتقدمين، و يقال: سلف سلفاً محرّكة أي مضى

١–سنن أبي داود: ج ٤، ص ٢٣٦.

٢–مسند أحمد بن حنبل: ج ٢، ص ٤٠٠.

٣–صحيح مسلم: ج ١، ص ١٣٤، ح ٢٤٠.

٤–الغريبين للغروي: مخطوط في مكتبة جامعة طهران في ذيل باب القاف مع الراء.

و انقضى، و إنّما قيّد عليه‌السلام المنّة علينا به صلّى الله عليه و آله المقتضية للحمل مطلقاً، بقوله: «دون الأُمم الماضية» لإفادته تعظيم المنّة، و إقتضائه تأكيد الحمد لما في ذلك من الكرامة التي خصّنا تعالى بها دونهم تفضيلاً لنا عليهم، و مزيد عناية بنا لم يحرزوها، إذ كانت الأنبياء و المرسلون فضلاً عن أُممهم يتمنّون أن يكونوا من أُمّته و يسألون الله أن يجعلهم منهم، كما وردت به الأخبار المستفيضة من طرق الخاصّة و العامّة، فمن ذلك ما رواه رئيس المحدّثين في كتاب معاني الأخبار بإسناده عن أبي عبد الله عليه‌السلام: انّه كان فيما ناجى الله تعالى به موسى أن قال له: يا موسى لا أقبل الصّلاة إلا ممّن تواضع لعظمتي، و ألزم قلبه خوفي، و قطع نهاره بذكري، و لم يبت مصرّاً على الخطيئة، و عرف حقّ أوليائي و أحبائي.

فقال: ياربّ تعني بأحبّائك و أوليائك إبراهيم و إسحاق و يعقوب.

فقال: هم كذلك يا موسى إلا إنّي أردت مَن مِن أجله خلقت آدم و حوّاء، و مَن مِن أجله خلقت الجنّة و النّار.

فقال موسى: يا ربّ و مَن هو يا ربّ؟.

قال: محمّد أحمد شققت إسمه من إسمي، لأنّي أنا المحمود.

فقال موسى: يا ربّ إجعلني من أُمّته.

قال: يا موسى، أنت من أُمّته إذا أنت عرفته و عرفت منزلته و منزلة أهل بيته[١] و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

و أخرج أبو نعيم في الحلية عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: إنّ موسى لمّا نزلت عليه التوراة و قرأها وجد فيها ذكر هذه الأُمّة فقال: ياربّ إنّي أجد في الألواح أُمّة هم الآخرون السابقون فاجعلها أُمّتي. قال: تلك أُمّة أحمد.

---

١ ـ معاني الأخبار: ص ٥٤، ح ١.

قال: يا ربّ إنّي أجد في الألواح أُمّة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها ظاهراً فاجعلها أُمّتي. قال: تلك أُمّة أحمد.

قال: يا ربّ إنّي أجد في الألواح أُمّة يأكلون الفيء[1]، فاجعلها أُمّتي.

قال: تلك أُمّة أحمد.

قال: يا ربّ إنّي أجد في الألواح أُمّة أذا همّ أحدهم بالحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة و إن عملها كتبت له عشر حسنات، فاجعلها أُمّتي.

قال: تلك أُمّة أحمد.

قال: يا ربّ إنّي أجد في الألواح أُمّة إذا همّ أحدهم بسيّئة فلم يعملها لم تكتب، و إن عملها كتبت سيّئة واحدة فاجعلها أُمّتي.

قال: تلك أُمّة أحمد.

قال: يا ربّ إنّي أجد في الألواح أُمّة يؤتون العلم الأوّل و الآخر، و يقتلون مع المسيح الدّجال فاجعلها أُمّتي.

قال: تلك أُمّة أحمد.

قال: يا ربّ فاجعلني من أُمّة أحمد. فأُعطي عند ذلك خصلتين.

فقال: «يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ»[2].

قال: قد رضيت يا ربّ[3].

و الأخبار في هذا المعنى كثيرة جدّاً و للّه الحمد.

١-الفيء: الخراج و الغنيمة، المصباح المنير: ص ٤٨٦.

٢-الأعراف: ١٤٤.

٣-حلية الأولياء: ج ٥، ص ٣٨٥، مع اختلاف يسير في العبارة.

بِقُدْرَتِهِ الَّتِي لا تَعْجِزُ عَنْ شَيْءٍ وَ إِنْ
عَظُمَ، وَ لاَ يَفُوتُهَا شَيْءٌ وَ إِنْ لَطُفَ

«بقدرته» متعلّق بقوله: «منّ علينا» والقدرة فيها، قوّة جسمانيّة منبثّة[1] في الأعضاء محرّكة لها نحو الأفعال الإختياريّة.

«و العجز» ما يقابل القدرة بهذا المعنى و هو عدمها عمّا من شأنه أن يقدر، كما في حقّ الواحد منّا، إذ لا يقال للجدار مثلاً إنّه عاجز و قدرته تعال تعود إلى إعتبار كون ذاته مصدر الإثارة[2]، هذا قول الجمهور.

«و الشيىء» بحسب مفهومه اللغوي يقع على كلّ ما يصحّ أن يُعلم و يخبر عنه كائناً ما كان، على أنّه في الأصل مصدر شاء، أُطلق على المفعول، و أكتفى في ذلك بإعتبار تعلّق المشيئة به من حيث العلم أو الإخبار به فقط، فيتناول الواجب و الممكن و الممتنع، و قد يخصّ بالممكن موجوداً كان أو معدوماً كما هنا لقضيّة إختصاص تعلّق القدرة، به إذا المراد بها التمكّن من الإيجاد و الإعدام الخاصّين به.

و ذهب القاضي في جمع من الأشاعرة: إلى أنّ الشيىء يختصّ بالموجود، و أنّ المعدوم لا شيء و لا ذات و لا ماهيّة، و هو أيضاً مذهب الحكماء على ما نقل عنهم.

قالوا: «الشيىء» اسم لما هو حيقيقة الشيئيّة، و لا يقع على المعدوم و المحال، و لا علم بالمحال أصلاً إذ لا شيئيّة له، و لا هو ممّا يتمثّل في ذهن أو يتصوّر في وهم، و إنّما المعلوم المتصوّر المتمثّل في الذهن عنوان المفهوم من لفظه، و هو ممكن ما من الممكنات ليس في إزائه حقيقة من الحقائق، و

١-منبثة: أي منتشرة.

٢-الإثارة: القدرة.

شيء من الأشياء أبداً، و إلى الأوّل ذهب المعتزلة و جماعة من الأشاعرة.

قال الزمخشري و النيسابوري: الشيء: أعمّ العام، كما أنّ الله أخص الخاصّ يجري على الجوهر و العرض، و القديم و الحادث، بل على المعدوم و المحال[١].

و هذا العام مخصوص بدليل العقل، فمن الأشياء، ما لا تتعلّق القدرة به كالمستحيل و الواجب وجوده لذاته[٢].

و قال القطب العلاّمة[٣]: كلّ من قال: بأنّ الوجود، عين الماهيّة مثل الأشعري و أتباعه، قال: بأنّ المعدوم ليس بشيء لإنتفاء الماهيّة عند العدم، و من قال: بأنّ الوجود غيرها، فهم قد اختلفوا في ذلك، و النزاع انّما هو في المعدوم الممكن، لا في المعدوم الممتنع فانّه ليس بشيء عند الفريقين[٤]، إنتهى.

و هذا لا يرد على ما صرّح به الزمخشري و النيسابوري لأنّ كلامهما بحسب مفهومه لغة، و ما ذكره من النزاع إنّما هو في الشيئيّة بمعنى التحقّق منفكاً عن صفة الوجود، لا في إطلاق لفظ الشيء على مفهومه فإنّه بحث

١-الكشاف: ج ١، ص ٨٧ -٨٨.

٢-تفسير النيسابوري: ج ١، ص ٦٢.

٣-هو قطب الدين محمود بن مسعود بن مصلح الشيرازي الشافعي الملقب بالعلاّمة تلميذ الخواجه نصير الدين الطوسي. قيل: كان وحيد عصره في المعقول و كان في غاية الذكاء، و له تلاميذ كثيرة و تصانيف شهيرة منها: شروحه على القسم الثالث من المفتاح، و على المختصر الحاجبي، و على كليات ابن سينا. توفي بتبريز ٧١٠ هجرّية. الكنى و الالقاب: ج ٣، ص ٥٩.

٤-لايوجد لدينا كتابه.

لغوي مرجعه إلى النقل و السّماع لا يصلح محلاً لإختلاف العقلاء الناظرين في المباحث العلميّة، و لهذا قال صاحب الكشف: النزاع في هذا لا ينبغي أن يقع بين المحقّقين لأنّه أمر لفظي، و البحث فيه من وظيفة أصحاب اللغة[1]، إنتهى.

تبصرة

قال العلماء: معنى كون قدرته تعالى لا تعجز عن شيء، و كونه على كلّ شيء قديراً :إنّ قدرته لا تعجز عمّا يمكن تعلّق القدرة به و أنّه على كلّ شيء يصحّ تعلّقها به قدير من كلّ ماهيّة إمكانيّة، أو شيئيّة تصوّريّة.

و أمّا الممتنعات فلا ماهيّة لها و لا شيئيّة حتّى يصحّ كونها مقدورة له تعالى و ليس في نفي مقدوريّتها نقص على عموم القدرة، بل القدرة عامّة و الفيض شامل و الممتنع لا ذات له، و إنّما يخترع العقل في وهمه مفهوماً يجعله عنواناً لأمر باطل الذّات، كشريك الباري، و اللا شيء، و اجتماع النقيضين، أو يركّب بين معان ممكنة آحادها تركيباً ممتنعاً، فإنّ كلا من المتناقضين كالحركة و السكون أمر ممكن خارجاً و عقلاً، و كذا معنى التركيب و الإجتماع، أمر ممكن عيناً و ذهناً.

و أمّا اجتماع المتنافيين، فلا ذات له في الخارج و لا في العقل، لكنّ العقل يتصوّر مفهوم إجتماع النقيضين على وجه التلفيق و يجعله عنواناً، ليحكم على أفرادهما المقدرة بامتناع الوجود. و من هنا أُطلق على المستحيل أنّه شيء و إلا فهو لا ماهيّة له و لا معنى، فلا تعلّق للقدرة به.

و أمّا الحديث المشهور الذي رواه ثقة الإسلام في الكافي: عن عليّ بن إبراهيم، عن محمّد بن إسحاق الخفّاف، أو عن أبيه، عن محمّد بن إسحاق،

---

١ -لم نعثر عليه.

قال: إنّ عبد الله الدّيصاني سأل هشام بن الحكم، فقال له: ألك ربّ؟ فقال: بلى، قال: أقادر هو؟ قال، نعم قادر قاهر، قال: أيقدر أن يدخل الدّنيا كلّها في بيضة لا تكبر البيضة و لا تصغر الدنيا؟ قال هشام: النظرة، فقال له: أنظرتك حولاً، ثمّ خرج عنه، فركب هشام إلى أبي عبد الله عليه السلام فاستأذن عليه فأذن له، فقال: يا ابن رسول الله أتاني عبد الله الديصاني بمسألة ليس المعوّل فيها إلا على الله و عليك، فقال أبو عبد الله عليه السلام عمّا ذا سألك، فقال: قال لي: كيت و كيت، فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا هشام كم حواسّك، قال: خمس، قال أيّها أصغر؟ قال: الناظر، قال: و كم قدر الناظر؟ قال: مثل العدسة أو أقلّ منها، فقال له: يا هشام فانظر أمامك و فوقك و أخبرني بما ترى، فقال: أرى سماء و أرضاً و دوراً و قصوراً و براريّاً و جبالاً و أنهاراً، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: إنّ الذي قدر أن يدخل الذي تراه العدسة أو أقلّ منها، قادر أن يدخل الدنيا كلّها البيضة لا تصغر الدنيا و لا تكبر البيضة، فأكب هشام عليه و قبّل يديه و رأسه و رجليه، و قال: حسبي يا ابن رسول الله[1]. و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

و مثله ما رواه رئيس المحدّثين في كتاب التوحيد بسنده إلى أحمد بن محمّد بن أبي نصر قال: جاء رجل إلى الرضا عليه السلام فقال: هل يقدر ربّك أن يجعل السماوات و الأرض و ما بينهما في بيضة؟ قال: نعم و في أصغر من البيضة قد جعلها الله في عينك و هي أقلّ من البيضة لأنّك إذا فتحتها عاينت السماء و الأرض و ما بينهما و لو شاء لأعماك عنها[2].

١ــالكافي: ج ١، ص ٧٩، ح ٤.

٢ــالتوحيد: ص ١٣٠، ح ١١.

فقال بعضهم: إنّ السؤال في ذلك و هو إدخال الكبير مع كبره في الصغير مع صغره، و إن كان من قبيل المتنافيين، فكان حقيقة الجواب عنه أن يقال: إنّ هذا أمر محال، و المحال غير مقدور عليه، إذ لا ذات له و لا شيئيّة، إلاّ أنّه عليه السلام عدل عنه إلى ما ذكره لقصور الأفهام العامّية عن إدراك ذلك الوجه، فالذي أفاده عليه السلام وجه إقناعيّ مبناه على المقدّمة المشهورة لدى الجمهور: انّ الرّؤية بدخول المرئيّات في العضو البصري فاكتفى في الجواب بهذا القدر لقبول الخصم له و تسليمه إيّاه.

قال: و الذي يدلّ على صحّة ما حملنا عليه غرض هذا الحديث ما رواه في كتاب التوحيد عن أبي عبد الله: قال: قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: هل يقدر ربّك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن تصغر الدنيا و تكبر البيضة؟

فقال: إنّ الله تعالى لا ينسب إلى العجز والذي سألتني لا يكون[1].

و هذا الحديث صريح في أنّ الذي سأله ذلك الرجل، ممتنع بالذات محال، و المحال لا شيئيّة له، فليس بمقدور و الله على كلّ شيء قدير، و لو لم يكن معنى الروايتين الأولتين ما أوّلناهما به، لكان بين الأخبار تناقض، و جلّت أحاديثهم عليهم السلام عن أن يناقض بعضها بعضاً، لعصمة الجميع عن الخطأ.

و مثل الحديث المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام، ما رواه في كتاب التوحيد أيضاً بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام إنّه جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: أيقدر الله أن يدخل الأرض في بيضة و لا يصغّر الأرض و لا يكبّر البيضة؟

---

١ -التوحيد: ص ١٣٠، ح ٩.

فقال له: ويلك إنّ الله لا يوصف بالعجز، و مَن أقدر ممّن يلطف الأرض و يعظّم البيضة[1].

فدلّت هذه الرواية: على أنّ إدخال العظيم أو تعظيم الصغير بنحو التكاثف و التخلخل و ما يجري مجراهما و أنّ تلطيف الأرض إلى حدّ تدخل في البيضة، أو تعظيم البيضة إلى حدّ تدخل فيها الأرض غاية القدرة.

و قال بعض المعاصرين: إنّ هذه الأحاديث كلّها متّفقة، و لا تنافي و لا تناقض فيها، و أنّ الجواب في كلّ منها بحسب ما يقتضيه المقام و حال السائل، و كلامهم عليهم السلام أصله واحد و قد أمروا أن يكلّموا الناس على قدر عقولهم.

و بيان ذلك: إنّ الحديثين الأوّلين يدلّان على ما دلّ عليه الحديثان الآخران على وجه لطيف و معنى شريف. وتوضيحه: إنّ الظاهر من حال الديصاني في الحديث الأوّل: إنّه كان مناظراً مجادلاً كما يظهر من سياق كلامه مع مثل هشام بن الحكم، و جواب الإمام عليه السلام له على هذا النحو يدلّ على أنّه كان يعلم أنّ ما سأل عنه محال، والقدرة لا تتعلّق بالمحال، لنقصه عن الإستعداد لتعلّق القدرة به، فعدوله عليه السلام إلى ما يدلّ على كمال القدرة مع وجوده، و عدم لزوم المحال فيه، مع كونه نظيراً لما أراده السّائل فيه، تمام الفصاحة و البلاغة، و الإلزام لمن عرف عليه السلام من حاله أنّه يفهم ذلك، و حال هشام في فهمه كحال الديصاني، و إلاّ فمثل هشام مع العلم بحاله لا يخفى عليه أنّ السائل أراد غير ما أجابه عليه السلام به و لم يراجعه في ذلك لأجل دفع ما يورده السائل من أنّه أراد غير ما تضمّنه الجواب.

١ـالتوحيد: ص ١٣٠، ح ١٠.

و حاصل الكلام: إنّه عليه السلام نبّهه أنّ الله سبحانه قادر على أن يدخل الدنيا في البيضة مثل دخول ما تراه بناظرك في الناظر و هو بهذا القدر و ذلك بحيث لا تكبر البيضة و لا تصغر الدنيا، كما أنّ ما يراه الناظر يدخل تحت قدرته بحيث لا يكبر الناظر و لا يصغر ما ينظره.

و على هذا النحو ما في الحديث الآخر من قول الرضا عليه السلام «نعم و في أصغر من البيضة قد جعلها الله في عينك و هي أصغر من البيضة»[١].

ففيه تنبيه للسائل على كمال قدرته تعالى ممّا هو ممكن، و غير محال، و أنّ ما سأل عنه لا ينبغي أن يسأل عنه لما ذكر من كونه محالاً، فظهر كون الأحاديث كلّها متّفقة لا تنافي فيها، و إلا فكيف يتصوّر أن يخفى على الإمام عليه السلام ما أراده السائل حتّى يجيبه بغير ما دلّ عليه سؤاله؟ و مع ذلك لا يفرّق هشام و السائل بين السؤال و الجواب، و ينقل مثل هذا أجلاّء العلماء من غير تعرّض لدفع ما ذكر؟ و ما ذلك إلاّ لفهمهم وجه ذلك، و الله أعلم.

قوله عليه السلام: «و إن عظم» (إن) هذه هي التي يسمّيها أكثر المتأخرين وصليّة و متّصلة، و ذلك حيث وقع الشرط بها مدلولاً على جوابه بما قبله من الكلام، و كان ضدّ الشرط أولى بجزائه من الشرط كقولك: أكرمه و إن شتمني، فالشتم بعيد من الإكرام، و ضدّه و هو المدح أولى بالإكرام، و مثله قوله: «و إن عظم» فإنّ كون الشيىء عظيماً بعيد في الظاهر عن القدرة عليه، و ضدّه و هو كونه لطيفاً أولى بالقدرة عليه، و مثل إن في ذلك (لو) المستعملة في معناها نحو: «اطلبوا العلم و لو بالصين»[٢].

١-التوحيد: ص ١٣٠، ح ١١.

٢-روضة الواعظين: ص ١١، في فضل العلم.

و «الواو» قيل: للعطف على محذوف، و هو ضدّ الشرط المذكور، أي لا تعجز عن شيء إن لم يعظم و إن عظم.

و قيل: للحال، و العامل فيها، ما تقدّم من الكلام و المعنى: لا تعجز عن شيء والحال أنّه عظيم.

و قيل: - الجملة - إعتراضية، و الواو للإعتراض و هي قد تأتي بعد تمام الكلام.

و فيه إنّه لا يفيد إدخال الواو حينئذٍ كون الجزاء أولى من الشرط، فإنّ واو الإعتراض هي الإستئنافية كما جزم به بعضهم.

«و عظم الشيء» - بالضمّ - خلاف صغر، عظماً - كعنب - و عظامة فهو عظيم.

قوله عليه السلام: «و لا يفوتها شيء و إن لطف» فاته الشيء فوتاً و فواتاً: ذهب عنه، و لطف - كعظم -، لطفاً - بالضمّ -، و لطافة: صغر حجمه و دقّ فهو لطيف، أي لا يذهب عن قدرته شيء لصغره و دقّته كما لا يعجزها شيء لعظمه و كبره، بل هو على كلّ شيء قدير عظيماً كان أو لطيفاً، لعموم قدرته جلّ شأنه و عزّ سلطانه.

إكمال

قال بعضهم: الأولى في إثبات عموم قدرته تعالى و نحوه من المطالب التي لا يتوقّف إرسال الرسول عليها بالأدلّة السمعيّة فيستدلّ على شمول القدرة بقوله تعالى: «وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[1].

و اعترض المحقّق الدواني بأنّ كون شمول القدرة ممّا لا يتوقف عليه إرسال الرسول، مسلّم إذا لو فرض قدرته على الإرسال فقط لكفى في

---

١ - الحشر: ٦.

صدور الإرسال عنه، لكن إثبات إرسال الرسول ممّا يتوقّف على شمول القدرة، إذ طريق إثباته: إنّ المعجزة فعل الله تعالى خارق للعادة و قد صدر عنه حال دعوى النبوّة، و إذا خالف الفاعل المختار عادته حين إستدعاء النبيّ تصديقه بأمر يخالف عادته دلّ ذلك على تصديقه قطعاً، و هذا يتوقّف على كونه فعلاً له، و كونه فعلاً له مثبت بشمول القدرة إذ لا دليل لنا على أنّ خصوص المعجزة فعل الله تعالى و مقدوره و إن زعمه المعتزلة، و احتمال وجوده لا يجدي نفعاً فلا يتمّ هذا القول.

و أورد أنّه لا يكفي في ثبوت المعجزة كون الأمر الخارق للعادة فعل الله تعالى بل يتوقّف على العلم بأنّ الله تعالى لا يصدق الكاذب، و هم لا يقولون بالحسن و القبح العقليّين، فيتوقّف على إخبار الرسول بذلك فيدور أيضاً.

و من الأدلّة العقليّة على عموم القدرة إنّ علّة المقدوريّة عامّة في جميع الممكنات فالقدرة عامّة في جميعها، أمّا أنّ علّة المقدوريّة عامّة في جميعها فلأنّ علّتها الإمكان، و هو وصف مشترك في جيمع الممكنات، فيكون جميعها مقدوراً له تعالى.

قال جدّنا العلامة نظام الدين أحمد ﷺ: لو تم هذا الدليل لدلّ على أنّ قدرة العباد أيضاً عامّة، فإنّ الإمكان علّة للمقدوريّة على الممكن للعبد أيضاً، وإذا كانت علّة المقدوريّة عامّة في جميع الممكنات كانت قدرته أيضاً عامّة و لا قائل به أصلاً.

و المشهور في الإستدلال على ذلك: إنّ المقتضي للقدرة هو الذات، و المصحّح للمقدوريّة هو الإمكان، فإنّ الوجوب و الإمتناع يحيلان المقدوريّة و نسبة الذات إلى جميع الممكنات على السواء، فإذا ثبتت

قدرته على بعضها ثبتت على كلّها. لكن هذا إنّما يتمّ إذا لم تكن الممكنات حال العدم ممتازة بعضها عن بعض و لا يكون لها مادّة كما هو مذهب الأشاعرة، بل المحقّقين من المتكلّمين. أمّا على القول بأنّ لهاإمتيازاً حال العدم بأن يكون لها ثبوت دون الوجود فتكون ممتازة بعضها عن بعض حال العدم كما هو مذهب المعتزلة القائلين بالوجود الذهني، و أنّ الموجودات الذهنيّة لها ثبوت دون الوجود، فيجوز أن يكون خصوصيّة بعض الممكنات في حال العدم مانعة عن تعلّق قدرته تعالى به، فلا تكون نسبة الذات إلى الجميع على السواء، و كذا على القول بأنّ لها مادّة كما هو مذهب الحكماء إذ يجوز أن تكون تلك المادّة معدّة لبعض الممكنات دون بعض، فما أعدته المادة كان مقدوراً له تعالى دون غيره، فلا تتساوى نسبة الذات إليها أيضاً على هذا القول.

أمّا إذا لم تكن الممكنات حالة العدم ممتازة بعضها عن بعض و لم تكن لها مادّة كانت نسبة الذات إلى جميعها على السواء فيثبت عموم القدرة عليها.

قال جدّنا العلامة المذكور ﷺ: و يرد عليه أنّه على تقدير عدم ثبوت الممكنات حال العدم، و عدم المادّة أيضاً، يجوز أن يقال: لمّا كانت تلك الممكنات معلومة للواجب تعالى في الأزل، كانت ممتازة بعضها عن بعض بحسب علمه، فيمكن أن يقال: لم لا يكون خصوصيّة بعضها في علمه تعالى مانعة عن تعلّق قدرته به، فلا تكون نسبة الذات إلى جميعها على السواء لابدّ لنفي ذلك من دليل. إنتهى[1] فتأمّل.

و الحقّ: إنّ المعوّل في ذلك على الدليل السمعي و إجماع الأنبياء عليهم السلام

---

١ -إنتهى كلام نظام الدين أحمد.

الذين علموا ذلك بالوحي و العلم الشهودي، كما قال تعالى مخاطباً لخاتم أنبيائه عليه و عليهم السّلام: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[1].

و لزوم الدور، إنّما يرد على كون معرفة صدق النبي بالمعجزة موقوفاً على العلم بعموم القدرة، لكن العلم الضروري العادي يحصل بمجرّد ظهور المعجزة على صدقه كما جزم به جدّنا الأعظم غياث الحكماء في رسالته: «دليل الهدى»، و وافقه عليه بعض المحقّقين، فيحصل العلم بالقدرة و العلم و عمومها من أخبارهم عليهم السلام فاعرف ذلك و ابن عليه أمثال هذه المطالب فإنّه السبيل الذي لا يضل بسلوكه الطالب، و الله يقول الحقّ و هو يهدي السبيل.

* * *

١ـ البقرة: ١٠٦.

فَـخَتَمَ بِـنَا عَـلَى جَمِـيعِ مَـنْ ذَرَأَ،
وَ جَعَلَنَا شُهَـدَآءَ عَـلَى مَـنْ جَـحَدَ،
وَ كَـثَّرَنَا بِمَـنِّهِ عَـلَى مَـنْ قَـلَّ.

«ختم الكتاب» من باب – ضرب –، وختم عليه ختماً: وضع عليه الخاتم و هو الطابع[1].

و «الباء» للسببيّة. قال ابن مالك في شرح التسهيل: و هي الداخلة على صالح الإستغناء به عن فاعل معدّاها مجازاً نحو: «فَأَخْرَجَ بِـهِ مِـنَ ٱلثَّمَرَٰتِ»[2] فلو قصد اسناد الإخراج إلى الماء لحسن، و لكنّه مجاز. قال: و منه: كتبت بالقلم، وقطعت بالسكّين، فإنّه يقال: كتب القلم و قـطعت السكّين. و النحويّون يعبّرون عن هذه الباء بالإستعانة، و آثرت عـلى ذلك التعبير بالسببيّة، من أجل الأفـعال المـنسوبة إلى الله تـعالى، فـإنّ إستعمال السببيّة فيها يجوز و إستعمال الإستعانة لا يجوز[3].

و «ذرأ الله الخلق» ذرأ بالهمز من باب – نفع –: خلقهم.

قال ابن الأثير: و كأنّ الذرء مختصّ بخلق الذريّة[4] إنتهى.

«و الذريّة» – مثلّثة – نسل الثقلين. و المعنى إنّه تعالى جعلنا آخـر جميع من خلق، من الأنبياء و أممهم كما قال تعالى: «وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ»[5] فختمهم بنا، فلا أُمّة بعدنا يـرسل إليهـا رسـول كـما أنّ

١–الطابع: بفتح الباء و كسرها: ما يطبع به، المصباح المنير: ص ٣٦٨ – ٣٦٩.

٢–البقرة: ٢٢.

٣–لا يوجد هذا الكتاب لدينا.

٤–النهاية لإبن الأثير: ج ٢، ص ١٥٦.

٥–فاطر: ٢٤.

نبيّنا ﷺ، خاتم الأنبياء و المرسلين، فلا أحد ينبيء بعده، و لا يقدح فيه نزول عيسى ﷺ بعده، لأنّه ممّن نبيّ، قبله و حين ينزل إنّما ينزل عاملاً على شريعة محمّد ﷺ مصلّياً إلى قبلته كأنّه بعض أُمّته.

قوله ﷺ: «و جعلنا شهداء على من جحد» الشهداء: جمع شهيد، فعيل بمعنى فاعل من شهد على الشيء: اطّلع عليه و عاينه، فهو شهيد و شاهد.

و جحده حقه يجحده جحداً و جحداً، من باب منع: أنكره، و لا يكون إلاّ على علم من الجاحد به، و في هذه الفقرة إشارة إلى قوله تعالى: «وَ كَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً»[1].

و «الوسط» في الأصل اسم لما تستوي نسبة الجوانب إليه كمركز الدائرة، ثمّ استعير للخصال المحمودة البشريّة، لكن لا لأنّ الأطراف يتسارع إليها الخلل و الأوسط محوّطة كما قيل، فإنّ تلك العلامة بمعزلٍ من الإعتبار في هذا المقام، إذ لا ملابسة بينها و بين أهليّة الشهادة التي جعلت غاية للجعل المذكور، بل كون تلك الخصال، أوساطاً للخصال الذميمة المكتنفة بها من طرفي الإفراط و التفريط، كالعفّة التي طرفاها الفجور و الخمود و كالحكمة التي طرفاها: الفجور و الخمود و كالشجاعة التي طرفاها: التهوّر و الجبن، و كالحكمة التي طرفاها: الجربزة و البلادة، ثمّ اطلق على المتّصف بها مبالغة كأنّه نفسها، و سوّى فيه بين المفرد و الجمع و المذكّر و المؤنث رعاية لجانب الأصل كساير الأسماء التي يوصف بها، أي جعلناكم متّصفين بالخصال الحميدة، خياراً، عدولاً، مزكّين

١-البقرة: ١٤٣.

بالعلم و العمل لتكونوا شهداء على الناس بأنّ الله تعالى قد أوضح السبل فأرسل الرسل فبلّغوا و نصحوا إذ كنتم واقفين على الحقايق المودعة في الكتاب المبين المنطوي على أحكام الدين و أحوال الأُمم أجمعين حاوياً لشرايط الشهادة عليهم.

روي انّ الأُمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء عليهم السلام فيطالب الله تعالى الأنبياء بالبيّنة عليه على أنّهم قد بلّغوا، و هو أعلم للحجة على الجاحدين و زيادة لخزيهم، فيؤتى بأُمّة محمّد صلى الله عليه وآله فيشهدون. فيقول الأُمم: من أين عرفتم؟ فيقولون: عرفنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيّه الصادق، فيؤتى عند ذلك بمحمّد صلى الله عليه وآله و يُسئل عن أُمّته فيزكّيهم و يشهد بعدالتهم، و ذلك قوله تعالى: «وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً»[1] و من الحكمة في ذلك، تميز أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله في الفضل عن ساير الأُمم حيث يبادرون إلى تصديق الله و تصديق الأنبياء و الإيمان بهم جميعاً، فهم بالنسبة إلى غيرهم كالعدل بالنسبة إلى الفاسق فلذلك تقبل شهادتهم على الأُمم و لا تقبل شهادة الأُمم عيلهم[2].

و إنّما لم يقل: و يكون الرسول لكم شهيداً، مع أنّ شهادته لهم لا عليهم؟ لما في الشهيد من معنى الرقيب، مثل: «وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»[3] مع رعاية المطابقة للأوّل و تقديم الظرف، للدلالة على اختصاص شهادته صلى الله عليه وآله بهم.

١ـالبقرة: ١٤٣.

٢ـأنوار التنزيل: ج ١، ص ٨٧، مع اختلاف يسير في بعض العبارة و تفسير النيسابوري في هامش، تفسير الطبري ج ٢، ص ١٢.

٣ـالبروج: ٩.

و قيل :إنّ هذه الشهادة في الدنيا وذلك أنّ الشاهد في عرف الشرع: من يخبر عن حقوق الناس بألفاظ مخصوصة على جهات مخصوصة فكلّ من عرف حال شخص فله أن يشهد عليه، فإنّ الشهادة: خبر قاطع، و شهادة الأُمّة لا يجوز أن تكون موقوفة على الآخرة لأنّ عدالتهم في الدنيا ثابتة بدليل «جَعَلْنٰكُمْ» بلفظ الماضي فلا أقلّ من حصولها في الحال، ثمّ رتّب كونهم شهداء على عدالتهم، فيجب أن يكونوا شهداء في الدنيا.

فإن قيل: لعلّ التحمّل في الدنيا و لكن الأداء في الآخرة.

قلنا: المراد في الآيـة الأداء لأنّ العـدالة إنّمـا تـعتبر في الأداء لا في التحمّل، و من هنا يعلم أنّ إجماعهم حجّة لا بمعنى أنّ كلّ واحد منهم محقّ في نفسه بل هيئتهم الإجتماعيّة تقتضي كونهم محقّين، وهذا من خـواصّ هذه الأُمّة.

ثمّ لا يبعد أن يحصل لهم مع ذلك الشهادة في الآخرة فيجري الواقع منهم مجرى التحمّل لأنّهم إذا بيّنوا الحـقّ عرفوا عنده من القابل و مـن الرادّ ثمّ يشهدون بذلك يوم القيامة كما أنّ الشاهد على العقود يعرف ما الذي تمّ، ثمّ يشهد بذلك عند الحاكم أو يكون المعنى: لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يصحّ إلا بشهادة العدول الأخيار.

قال النيسابوري: قيل: الآية مـتروكة الظـاهر، لأنّ وصـف الأُمّـة بالعدالة يقتضي إتّصاف كلّ واحد منهم بها، و ليس كذلك، فـلابدّ مـن حملها على البعض، فنحن نحملها على الأئمّة المعصومين، سـلّمناه لكـن الخطاب في جعلناكم للموجودين عند نزول الآية، لأنّ خطاب مـن لا يوجد محال، فالآية تدلّ على أنّ إجماع أولئك حقّ لكـنّا لا نـعلم بـقاء جميعهم بأعيانهم إلى ما بعد وفاة الرسول فلا يثبت صحّة الإجماع و قتئذٍ.

و اُوجيب: بأنّ حال الشخص في نفسه غير حاله بالقياس إلى غيره، فلِمَ لا يجوز أن لا يكون الشخص مقبول القول عند الإنفراد، و يكون مقبول القول عند الإجتماع؛ و الخطاب لجميع الأُمّة من حين نزول الآية إلى قيام السّاعة كما في سائر التكاليف مثل: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ»[1] «كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ»[2] فللموجودين بالذات و للباقين بالتبعيّة، لكنّا لو اعتبرنا أوّل الأُمّة و آخرها بأسرها لزالت فائدة الآية إذ لم يبق بعد إنقضائها من تكون الآية حجّة عليه فعلمنا، إنّ المراد بها أهل كلّ عصر، ثمّ إنّ الله تعالى منّ على هذه الأُمّة أن جعلهم خياراً و عدولاً عند الإجتماع، فلو أمكن إجتماعهم على الخطأ لم يكن بينهم و بين سائر الأُمم فرق في ذلك فلا منّة.[3] إنتهى.

قلت: أمّا عدم إجتماعهم على الخطأ فسلّم، لكن لا من حيث عصمتهم حال إجتماعهم عن الخطأ كما يزعمه المخالفون القائلون بجواز الخلوّ عن المعصوم، بل من حيث دخول المعصوم فيهم، لأنّ تحقّق الإجماع كاشف عن دخوله، و المسألة مستوفاة في كتب الأصول.

هذا و الحقّ: انّ المراد بالشهادة، الشهادة في الآخرة و بالشهداء الأئمّة المعصومين عليهم السلام، لما روي عن الصادق عليه السلام: إنّه قال: ظننت أنّ الله عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحّدين، أفترى أنّ من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب الله شهادته يوم القيامة و يقبلها منه بحضرة جميع الأُمم الماضية؟ كلاّ لم يعن الله مثل هذا من خلقه، يعني الأُمّة

١-البقرة: ١٨٣.

٢-البقرة: ١٧٨.

٣-تفسير النيسابوري في هامش تفسير الطبري: ج ٢، ص ١٤ - ١٥.

التي وجبت لها دعوة إبراهيم «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ»[١] و هم الأئمّة الوسطى و هم خير أُمّة أُخرجت للنّاس[٢].

و روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني في كتاب شواهد التنزيل: بإسناده عن سليم بن قيس الهلالي، عن عليّ عليه السلام: إنّ الله تعالى إيّانا عنى بقوله: «لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ»[٣] فرسول الله شاهد علينا، و نحن شهداء على خلقه و حجّته في أرضه، و نحن الذين قال الله تعالى: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا»[٤][٥].

و روى ثقة الإسلام في الكافي بسنده، عن بريد بن معاوية قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام قوله: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ»[٦] قال: نحن الأُمّة الوسط و نحن شهداء الله على خلقه و حجّته في أرضه [٧].

و بسنده عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نحن الشهداء على الناس بما عندهم من الحلال و الحرام، و بما ضيّعوا منه[٨].

١-آل عمران: ١١٠.

٢-تفسير العياشي: ج ١، ص ٦٣، ح ١١٤، مع اختلاف يسير في العبارة.

٣-البقرة: ١٤٣.

٤-البقرة: ١٤٣.

٥-شواهد التنزيل لحسكاني: ج ١، ص ٩٢، ح ١٢٩.

٦-البقرة: ١٤٣.

٧-الكافي: ج ١، ص ١٩١، ح ٤، و فيه: عن بريد العجلي. و بصائر الدرجات: ص ٨٢، ح ٣.

٨-بصائر الدرجات: ص ٨٢، ح ١، و تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ١٣٣.

و على هذا فالضمير في جعلنا، من قوله «و جعلنا شهداء على من جَحَد» للأُمّة بإعتبار بعضهم الذين هم الأئمّة عليهم السلام.

قال بعض العلماء: فإن قلت: ما حقيقة هذه الشهادة و ما فائدتها مع أنّ الله تعالى عالم الغيب و الشهادة؟

قلت: أمّا حقيقتها: فيعود إلى إطّلاعهم صلوات الله عليهم على أفعال الأُمّة. و بيان ذلك: إنّ للنّفوس القدسيّة الإطّلاع على الأُمور الغيبيّة و الإنتقاش بها مع كونها في جلابيب من أبدانها، فكيف به قبل ملابستها لها و بعد مفارقتها لهذا العالم و الجسم المظلم، فإنّها إذن تكون مطّلعة على أفعال جميع الأُمم و مشاهدة لها من خير و شر.

و أمّا فائدتها: فقد علمت أنّ أكثر أحكام الناس و هميّة. و الوهم منكر للإله على الوجه الذي هو الإله. فبالحري أن ينكر كونه عالماً بجزئيّات أفعال عباده و دقائق خطرات أوهامهم، و ظاهر أنّ ذلك الإنكار يستتبع عدم المبالاة بفعل القبيح و الإنهماك في الأُمور الباطلة التي نهى الله تعالى عنها، فإذا ذكر لهم أنّ عليهم شهداء و رقباء و كتّاباً لما يفعلون مع صدق كلّ ذلك بأحسن تأويل، كان ذلك ممّا يعين العقل على كسر النفس الأمّارة بالسوء، و قهر الأوهام الكاذبة، و يردع النفس عن متابعة الهوى، و إذا كان معنى الشهادة يعود إلى إطلاع الشاهد على ما في ذمّة المشهود عليه و علمه بحقيقته و فائدتها حفظ ما في ذمّة المشهود عليه، و تخوّفه إن جحد، أولم يوصله إلى مستحقّه أن يشهد عليه الشاهد فيفضحه و ينزع منه على أقبح وجه، و كان المعنى و الفائدة قائمين في شهادة الأئمّة عليهم السلام إذ بها تحفظ أوامر الله و تكاليفه التي هي حقوقه الواجبة، ويحصل الخوف للمقصرين فيها بذكر شهادتهم عليهم بالتقصير

فيفتضحوا في محفل القيامة و يستوفي منهم جزاء ما كلّفوا به فقصّروا فيه بالعقاب الأليم لاجرم ظهر معنى كونهم شهداءالله على خلقه.

قوله ﷺ: «وكثّرنا بمنّه على من قلّ» كثرت الشيىء تكثيراً و أكثرته إكثاراً: جعلته كثيراً، أي جَعَلَنا كثيرين وافرين العدد، دون سائر الأُمم الذين هم قليلون بالنسبة إلينا، و عدّى كثّر بـ(على) لتضمينه معنى التفضيل. كأنّه قال: كثّرنا بمنّه مفضّلاً لنا على من قلّ.

و تكثيرنا، إمّا بإعتبار كون شرعه ﷺ مؤبداً إلى يوم القيامة، فتكون أُمّته مستمرّة لا إنقطاع لها إلى إنقضاء الدنيا، بخلاف سائر الأُمم ، أو باعتبار شمول رسالته إلى العرب و العجم و الإنس و الجنّ، أو باعتبار البركة في النسل كما قال ﷺ: «تناكحوا تناسلوا فإنّي مكاثر بكم الأُمم يوم القيامة»[1]، أو باعتبار بقاء معجزه الذي هو القرآن إلى آخر الدهر.

وبالجملة، فقد عدّ العلماء من خصائصه ﷺ ،كونه أكثر الأنبياء تابعاً.

و روي عنه ﷺ أنّه قال: «ما من الأنبياء نبيّ إلاّ أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، و إنّما كان الذي أُوتيت وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أني أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[2]. و هذا الخبر يؤيّد الإعتبار الأخير. و فسّر قوله تعالى: «إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ»[3] بالكثير من أولاده و أتباعه ﷺ.

و يحتمل: أن يراد بالكثرة: الثروة، و بالقلّة: الفقر، يقال: رجل مُكثر،

١-وسائل الشيعة: ج ١٥، ص ٩٦، ح ١٤، مع اختلاف يسير في العبارة، و هكذا جاء في دعائم الإسلام: ج ٢، ص ١٩١، ح ٦٨٩.

٢-مسند أحمد بن حنبل: ج ٢، ص ٣٤١ و ٤٥١، مع اختلاف يسير في العبارة.

٣-الكوثر: ١.

إذا كان ذا مال، كما يقال: رجل مُقلّ، إذا كان فقيراً: أي جعلنا مكـثرين موسرين، فانقين على من كان فقيراً مُقلاً.

و يحتمل أن يراد بهما: العزّة و الذلّة. إذ كـان مـن الشـائع أن يكـنّى بالكثرة عن العزّة و بالقلّة عن الذلّة، أي أعزّنا على من ذلّ.

قال الزجاج في قوله تـعالى:«وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ»(١): يحتمل كثرة العدد بعد القلّة، و كثرة العُدد بعد النزارة، و كثرة القـدرة و الشدّة بعد الضعف و الذلّة(٢).

و قال الزمخشري: «أي و اذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلاً عددكم فكثّركم الله و وفّر عددكم، و يجوز إذ كنتم فقراء مقلّين فكثّركم فجعلكم مكثرين موسرين، أو كنتم أقلّة أذلّة فأعزّكم بكثرة العَـدد و العُدد»(٣).

* * *

---

١ ـ الأعراف: ٨٦

٢ ـ التفسير الكبير للفخر الرازي: ج ١٤، ص ١٧٥.

٣ ـ الكشاف: ج ٢، ص ١٢٨.

أَللّـهُمَّ فَـصَلِّ عَـلَى مُحَمَّدٍ أَمِـينِكَ

عَـــلَى وَحْـيِكَ وَ نَجِـيبِكَ مِـنْ

خَـلْقِكَ، وَ صَـفِيِّكَ مِـنْ عِـبَادِكَ.

أصل «أَللّهُمَّ» يا الله، حذف حرف النداء و عوّض عنه الميم، و لذلك لا يجمع بينهما إلاّ ضرورة كقول الشاعر:

إني إذا مـا حَـدَثٌ أَلمّـا أقول يا أَللّهُمَّ يا أَللّهُمّا[1]

و إنّما أُخّرت الميم تبرّكاً باسمه تعالى، و خصّت بـذلك دون غـيرها لأنّ المـيم عـهد زيـادتها آخـراً، كـميم زرقـم للشـديد الزرقـة. هـذا مذهب البصريّين.

و ذهب الكوفيّون إلى أنّ الميم ليست عوضاً، بـل بـقيّة مـن جمـلة محذوفة و هي أُمّنا بخير.

قال الرضي: و ليس بوجه لأنّك تقول: أَللّهُمَّ لا تؤمّهم بخير[2].

و قال أبو علي: و لأنّه لو كان كما ذكر لما حسن، أَللّهُمَّ أُمّنا بخير، و في حسنه دليـل عـلى أنّ المـيم ليست مأخـوذة مـنه، إذ لو كـان كـذلك لكان تكريراً[3].

و قال بعضهم: أصل أَللّهُمَّ: يا الله المطلوب للمهمّ، فـحذف حـرف النداء لدلالة الطلب و الإهتمام عليه مع قيامه مقامه، ثمّ اقتصر من لفظي الصّفتين بأوّل الأوّل و آخر الثاني و أُدغم أحدهما في الآخر.

قوله ﷺ: «أمينك على وحيك» الأمين: فعيل من الأمانة، فهو إمّـا

١-شرح الكفاية في النحو للرضي: ج ١، ص ١٤٦.

٢-شرح الكافية في النحو للرضي: ج ١، ص ١٤٦.

٣-لم نعثر عليه.

بمعنى مفعول: أي مأمون من أمنه -كعلمه- إذا إستأمنه، أو بمعنى فاعل من أمن هو ككرم فهو أمين.

و «الوحي» في اللغة: الإشارة و الرسالة و الكتاب و الإلهام و كلّ ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه فهو وَحي كيف كان. و هو مصدر وَحَى إليه يَحِى من باب وعد، و أوحى إليه بالألف مثله، و هي لغة: القرآن الفاشية، ثم غلب إستعمال الوحي فيما يُلق إلى الأنبياء من عند الله، و المراد بكونه أميناً على وحيه تعالى: قوّته على ما كلّف به من ضبط الوحي في ألواح قواه الشريفة بحكم الحكمة الإلهيّة بها عليه، و كمال إستعداد نفسه الطاهرة لأسرار الله و علومه، و حكمه، و حفظه لها، عن ضياعها، و صيانتها عن تدنّسها بأذهان غير أهلها، و عدم تطرّق تبديل أو زيادة أو نقصان إليها، إذ كان من شأن الأمين قوّته على ضبط ما يستأمن عليه، و إستعداده له و حفظه و صيانته عن التلف و الأدناس و التبديل و الزيادة و النقصان، و لهذا السرّ كانت العرب تسمّيه بالأمين قبل مبعثه لما شاهدوه من أمانته، و شهّر بهذا الاسم قبل نبوّته و بعدها.

قوله عليه السلام: «و نجيبك من خلقك» النجيب: الكريم النفيس في نوعه، فعيل بمعنى فاعل، من نَجُبَ ككَرُمَ نجابة، و يحتمل أن يكون بمعنى مفعول: أي اللُّباب الخالص الذي انتجبته من خلقك، من قولهم: نجبت العُود من باب -ضَرَب- و -قتل- و انتجبته: إذا قشرت نَجَبه بالتّحريك و هو: لحاؤه و قشره و تركت لبابه و خالصه.

و في حديث ابن مسعود: الأنعام: من نجائب القرآن أو نواجب القرآن[1].

١- النهاية لابن الأثير: ج ٥، ص ١٧.

قال في القاموس: نجائب القرآن: أفضله و محصنه، و نواجبه لُبابه الذي عليه نجب[١].

و في نسخة ابن إدريس: نجيّك من خلقك بالياء المثناة من تحت مشدّدة بعد الجيم، و هو فعيل من النجوى بمعنى السرّ. يقال: ناجيته أي ساررته، و هو نجيّ فلان: مناجيه دون أصحابه.

و قال ابن الأثير في النهاية في حديث الدّعاء: «أَللَّهُمَّ بمحمّد نبيّك و موسى نجيّك» هو المناجي المخاطب للإنسان و المحدّث له. يقال: ناجاه يناجيه مناجاة فهو مناج، و النجيّ فعيل منه، و قد تناجيا مناجاة و إنتجاء و منه: الحديث: «لا يتناجى اثنان دون الثالث» و في رواية: «لا ينتجي اثنان دون صاحبهما» أي لا يتساروان منفردين لأنّ ذلك ليسوؤه و منه: حديث عليّ عليه السلام: «دعاه رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الطائف فانتجاه فقال النّاس: لقد أطال نجواه. فقال: ما انتجيته ولكن الله انتجاه، أي إنّ الله أمرني أن أُناجيه»[٢] إلى هنا كلام ابن الأثير.

قوله عليه السلام: «و صفيّك من عبادك» الصفيّ إمّا بمعنى المصطفى أي المختار، و منه الصفي و الصفيّة لما يختاره الرئيس لنفسه من الغنيمة. أو بمعنى الحبيب المصافي من صافاه الودّ و الإخاء: صدّقه كأصفاه. يُقال: هو صفي من بين إخواني.

قال ابن الأثير: «هو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول»[٣].

و انتجاب الله تعالى و إصطفاؤه له عليه السلام و كذلك مصافاته له يعود إلى

١-القاموس المحيط: ج ١، ص ١٣٠، و فيه: (ليس عليه نجب).

٢-النهاية لابن الأثير: ج ٥، ص ٢٥، مع اختلاف يسير في العباره.

٣-النهاية لابن الأثير: ج ٣، ص ٤٠.

إفاضة الكمال النبويّ عليه بحسب ما وهبت له العناية الإلهيّه من القبول و الإستعداد.

و يحتمل أن يكون المراد باصطفائه تعالى له ﷺ جعله صفوة خلقه و عباده أي خيرتهم كما قال ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، و اصطفى من ولد إسماعيل كنانة، و اصطفى من كنانة قريشاً، و اصطفى من قريش بني هاشم، و اصطفاني من بني هاشم»[1].

* * *

١ -الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ج ١، ص ٨٢.

إِمَـــامِ ٱلرَّحْمَـــةِ وَ قَـــائِدِ
الْخَـــيْرِ وَ مِـــفْتَاحِ الْـــبَرَكَـــةِ

«إمام الرّحمة» بدل من محمّد، أو عطف بيان عليه و «الإمام» ما يقتدى به من رئيس أو غيره فيطلق على الخليفة، و العالم المقتدى به، و من يؤتم به في الصّلاة، و يستوي فيه المذكّر و المؤنث.

قال بعضهم: و ربما أنّث إمام الصّلاة فقيل: إمرأة إمامة، و قيل: الهاء فيها خطأ و الصواب حذفها لأنّ الإمام اسم لا صفة.

و قال بعضهم: لا يمتنع أن يقال: إمرأة إمامة لأنّ في الإمام معنى الصفة.

و«الرحمة» قيل: هي ميل القلب إلى الشفقة على الخلق والتلطّف بهم.

و قيل: هي إرادة إيصال الخير إليهم: و إضافة الإمام إليها، إمّا بمعنى اللام الإختصاصية، أي إمام للرحمة، و المعنى: الإمام المختص بالرحمة، أو بمعنى (من) البيانيّة أي إمام من جنس الرحمة، و المعنى: الإمام الذي هو الرحمة كأنّه نفس الرحمة مبالغة، و فيه إشارة إلى قوله تعالى:«وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ»[1].

قال أهل العربيّة: يجوز أن تكون رحمة، مفعولاً له أي لأجل الرحمة، و أن تكون حالاً مبالغة في أن جعله نفس الرحمة، و إمّا على حذف مضاف أي ذا رحمة، أو بمعنى راحم.

وفي الحديث: «أنا نبيّ الرحمة»[2] و في آخر: «إنّما أنا رحمة مهداة»[3].

١ـالأنبياء: ١٠٧.

٢ـمسند أحمد بن حنبل: ج ٤، ص ٣٩٥.

٣ـمجمع البيان: ج ٧ - ٨، ص ٦٧.

و تفصيل هذه الرحمة من وجوه:

أحدها: أنّه الهادي إلى سبيل الرشاد، و القائد إلى رضوان الله سبحانه، و بسبب هدايته يكون وصول الخلق إلى المقاصد العالية، و دخول جنّات النعيم التي هي غاية الرحمة.

الثاني: أنّ التكاليف الواردة على يديه أسهل التكاليف و أخفّها على الخلق بالنسبة إلى سائر التكاليف الواردة على أيدي الأنبياء السّابقين لأُممها. قال ﷺ: «بعثت بالحنيفيّة السمحة السهلة»[١] و ذلك عناية من الله تعالى و رحمة اختص بها أُمّته على يديه.

الثالث: أنّه ثبت أنّ الله يعفو عن عصاة أُمّته ويرحمهم بسبب شفاعته.

الرابع: أنّه سأل الله أن يرفع عن أُمّته بعده عذاب الإستيصال، فأجاب الله دعوته و رفع العذاب رحمة.

الخامس: أنّ الله وضع في شرعه الرّخص تخفيفاً و رحمة لأُمّته.

السادس: أنّه ﷺ رحم كثيراً من أعدائه كاليهود و النصارى و المجوس، برفع السيف عنهم، و بذل الأمان لهم، و قبول الجزية منهم.

و قال ﷺ: «من آذى ذمّياً فقد آذاني»[٢] و لم يقبل أحد من الأنبياء الجزية قبله.

السابع: إنّ الله تعالى أخّر عذاب من كذّبه إلى الموت، أو القيامة كما قال الله تعالى: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ»[٣] و كلّ نبيّ من

١-النهاية لابن الأثير: ج ١، ص ٤٥١.

٢-لم نعثر عليه. بل وجدنا قريباً منه و إليك نصه: «من آذى ذمّياً فأنا خصمه، و من كنت خصمه خصمته يوم القيامة» الجامع الصغير: ج ٢، ص ١٥٨.

٣-الأنفال: ٣٣.

الأنبياء قبله كان إذا كذب أهلك الله من كذّبه إلى غير ذلك من الوجوه التي لا تكاد تحصى كثرة.

فان قلت: كيف كان رحمة و قد جاء بالسيف و إستباحة الأموال؟ حتّى قال في حديث آخر: «أنا نبيّ الملحمة»[1] أي القتال.

قلت: إنّما جاء بالسيف لمن جحد و عاند و أراد خفض كلمة الله و لم يتفكّر و لم يتدبّر، ألاترى إنّه كان ﷺ لا يبدأ أحداً بقتال حتّى يدعوه إلى الله و ينذره، و من أسماء الله تعالى الرحمن الرحيم، ثمّ هو المنتقم من العصاة فلا شكّ إنّه ﷺ كان رحمة لجميع الخلق، للمؤمنين بالهداية و غيرها، و للمنافقين بالأمان، و للكافرين بتأخير العذاب، فذاته ﷺ رحمة تعمّ المؤمن و الكافر.

و روي إنّه ﷺ قال لجبرئيل لما نزل عليه بقوله تعالى:«وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ»[2]: هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعم كنت أخشى سوء العاقبة فأمنت إن شاء الله بقوله تعالى: «ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ»[3][4].

قوله ﷺ: «و قائد الخير» قاد الدابة قوداً، من باب - قال -، و قياداً: إذا تقدّمها آخذاً بقيادها و هو خلاف السّوق، و منه: قائد الجيش لأميرهم كأنّه يقودهم، و جمعه: قادة و قوّاد، و قد يقال للدليل أيضاً: قائد بهذا الإعتبار.

١-مسند أحمد بن حنبل: ج ٤، ص ٣٩٥ و ٤٠٤.

٢-الأنبياء: ١٠٧.

٣-التكوير: ٢٠ - ٢١.

٤-مجمع البيان: ج ٧ -٨، ص ٦٧، مع اختلاف يسير في العبارة.

و «الخير» قيل: هو شيء من أعمال القلب نوراني زائد على الإيمان و غيره من الصفات المرضية، يدلّ على ذلك ما في حديث أنس: «يخرج من النار من قال: لا إله إلّا الله و كان في قلبه من الخير ما يزن مثقال ذرّة»[١].

و قيل: هو الوجود و يطلق على غيره بالعرض، و هو إمّا خير مطلق كوجود العقل لأنّه خير محض لا يشوبه شرّ و نقص، و إما خير مقيّد، كوجود كلّ من الصفات المرضيّة.

و قيل: هو ما يطلبه و يُؤثّره و يختاره كلّ عاقل، و هو ينقسم: إلى خير بالذات، و خير بالعرض. فالأوّل: هو الحقيقي و مرجعه إلى الوجود البحت، و الموجود بما هو موجود كالعلم، و الإيمان الحقيقتين.

و الثاني: ما هو وسيلة إلى الأوّل، كالعبادة، و الزهد.

و قيل: هو ما يتشوّقه كلّ أحد بلا مثنويّة، و هو المختار من أجل نفسه، و المختار غيره لأجله فإنّ الكلّ يطلبه بالحقيقة الخير و إن كان قد يعتقد في الشرّ أنّه خير فيختاره، فقصده الخير و يضادّه الشرّ، و هو المجتوى من أجل نفسه، و المجتوى غيره من أجله.

و الحقّ: إنّ الخير، كلّيّ، يندرج تحته جميع الأعمال الصالحة كما يدلّ عليه قول أمير المؤمنين عليه السلام: «إفعلوا الخير و لا تحقّروا منه شيئاً، فإنّ صغيره كبير، و قليله كثير»[٢] و يؤيّده: ما في بعض الأخبار: يخرج منها أي من جهنّم قوم لم يعملوا خيراً قط[٣] و هؤلاء الذين ليس معهم إلا الإيمان إنتهى.

١-صحيح البخاري: ج ١، ص ١٦، مع اختلاف يسير في العبارة.

٢-نهج البلاغة: ص ٥٥٠ - ٥٥١، قصار الحكم: ٤٢٢.

٣-الترغيب و الترهيب: ج ٤، ص ٤١٢، ح ٥٩.

و يقابله، الشرّ فيكون كلّياً يندرج تحته جميع الأعمال السيّئة، و إضافة القائد إلى الخير من إضافة الفاعل إلى المفعول، و فيه إستعارة لطيفة، فإنّ القائد لمّا كان من شأنه أن يقود الدابّة حتّى يصل بها إلى الموضع المقصود، و كان ﷺ قد جاء بالخير و أوصله إلى الخلق، لا جرم حسنت إستعارة القائد له.

قوله ﷺ: «و مفتاح البركة» المفتاح: ما يفتح به المغلاق، و المفتح مثله، و كأنّه مقصود من الأوّل، و جمع الأوّل: مفاتيح، و الثاني: مفاتح بغير ياء.

و «البركة» - محرّكة - النماء و الزيادة و السعادة، و فيه إستعارة بديعيّة جداً و ذلك: إنّ الكفر و الضلال لمّا كانا مانعين من نماء الأعمال و سعادة الدارين، شبّهها بالمغلاق الذي يمنع من الدخول إلى الدار. و لمّا كان ﷺ رافعاً للكفر، و ماحياً للضلال، و كان سبباً للإقدام على إستفادة الخيرات الزاكية، و السعادات النامية، شبّهه بالمفتاح.

* * *

كَـــمَا نَـــصَبَ لِأَمْـــرِكَ نَـــفْسَهُ وَ
عَـــرَّضَ فِـــيكَ لِـلْمَكْرُوهِ بَـدَنَهُ.

«الكاف» للتعليل عند من أثبته لها أي صلّ عليه لأجل نصبه لأمرك نفسه كما في قوله تعالى: «وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ»[1] أي لهدايته إيّاكم. فما مصدرية. و زعم الزمخشري[2]، و ابن عطية[3] و غيرهما: أنّها كافة.

قال ابن هشام: و فيه إخراج الكاف عمّا ثبت لها من عمل الجر من غير مقتض، و من نفي و رود الكاف للتعليل. أجاب بأنّه من وضع الخاص موضع العام إذ الذكر و الهداية يشتركان في أمر و هو الإحسان، فهذا في الأصل بمنزلة «و أحسن كما أحسن الله إليك».

و «الكاف» للتشبيه لا للتعليل. فوضع الخاص و هو الذكر، موضع العام و هو الإحسان و الأصل: و أحسنوا كما أحسن الله إليكم. ثم عدل عن ذلك الأصل إلى خصوصيّة المطلوب و هو الذكر و الهداية[4]

و كذا القول في عبارة الدعاء إذا قلنا بأنّ الكاف فيها للتشبيه فيكون الأصل: فأحسن إليه كما أحسن، ثم عدل عن ذلك إلى قوله: «فصلّ عليه» كما نصب للإعلام بخصوصيّة المطلوب، و لا خفاء بما في ذلك من التكلف.

و الحق: ورودها للتعليل. فإن معنى التعليل ظاهر في حكاية

١-البقرة: ١٩٨.

٢-الكشاف: ج١، ص ٢٤٧.

٣-مغني اللبيب: ص ٢٣٤.

٤-مغني اللبيب: ص ٢٣٤.

سيبويه[١] «كما أنّه لا يعلم فتجازو الله عنه». و في قول الشاعر:

و طـرفك إمّـا جـئتنا فـاحبسنّه   كما يحسبوا أن الهوى حيث تنظر[٢]

إذا معناه، إنك إذا جئتنا فلا تنظر إلينا و انـظر إلى غـيرنا ليـحسب الرقباء أن هواك مقصور على من تنظر إليه ليكون ذلك سببا للسـتر و عدم الفضيحة.

قال ابن مالك: و نصب الفعل بعدها تشبيها بـ(كي) في المعنى[٣]

و «نصب» إمّا من النصب بسكون الصـاد، مـصدر نـصبت الشيء من باب – ضرب – إذا أقمته، تـقول: نـصبته لأمـر كـذا فـانتصب أي أقمته له فقام.

و المعنى: أقام لأمرك نفسه، أو من النصب محركة بمعنى التعب، يقال: نصب ينصب، كتعب يتعب، لفظاً و معنى، و نصبه غيره و أنصبه نصّ عليه ابن الأثير في النهاية[٤].

و المعنى: ألقب لأمرك نفسه.

و «الأمر» إمّا بمعنى طلب الفعل لمّا أمرته به، أو بمعنى الدين و الشرع كما في قوله تعالى:«وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللهِ»[٥]

قوله ﷺ : «و عرّضَ فيك للمكروه بدنه» عرّضته لكـذا تـعريضاً فتعرّض: نصبته له فانتصب كأنّك جعلته عرضة له: أي معروضا.

١–مغني اللبيب: ص ٢٣٤.

٢–مغني اللبيب: ص ٢٣٤ – ٢٣٥.

٣–مغني اللبيب: ص ٢٣٤ – ٢٣٥.

٤–النهاية لابن الأثير: ج ٥، ص ٦٢.

٥–التوبة: ٤٨.

و «فيك» أي لأجلك، فني: للتعليل كقوله تعالى: «فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ»(١) أي لأجله.

و «المكروه» ما يكرهه الإنسان و يشقّ عليه.

و «بدن الإنسان» قال الجوهري: جسده(٢).

و قال الأزهري(٣) و الفيروز آبادي: هو من الجسد ما سوى الرأس و الشوى(٤).

و قال بعضهم: هو ما سوى المقاتل.

و الصحيح: إنّه جملة الجسد: كما يدلّ عليه: كلامه عليه السلام، و في هاتين الفقرتين إشارة إلى قيامه صلى الله عليه وآله بأمر الله تعالى كما أمره و بذله مهجته و جسده في سبيله، و مقاساته للمكاره و تحمّله للمشاقّ في ذاته. فعن أبي عبد الله عليه السلام: إن الله تعالى كلّف رسول الله صلى الله عليه وآله ما لم يكلّفه أحداً من خلقه، كلّفه أن يخرج على الناس كلّهم وحده بنفسه إن لم يجد فئة تقاتل معه، و لم يكلّف هذا أحدا من خلقه قبله و لا بعده، ثم تلا: هذه الآية: «فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ»(٥)(٦).

و أما ما لا قاه عليه السلام من المكروه و المشقّة في ذات الله فمن قرأ كتب السير علم ذلك: كاستهزاء قريش به في أوّل الدعوة، و رميهم إيّاه

١-يوسف: ٣٢.

٢-الصحاح: ج ٥، ص ٢٠٧٧.

٣-تهذيب اللغة: ج ١٤، ص ١٤٣.

٤-القاموس المحيط: ج ٤، ص ٢٠٠.

٥-النساء: ٨٤.

٦-الكافي: ج ٨، ص ٢٧٤ - ٢٧٥، ص ٤١٤، و تفسير البرهان: ج ١، ص ٣٩٨.

بالحجارة حتّى أدموا عقبيه، و صياح الصبيان به، و فرث الكرش على رأسه، و فتل الثوب في عنقه، و حصره مع أهله في شعب بني هاشم عدّة سنين محرّمة معاملتهم و مبايعتهم و مناكحتهم و كلامهم حتّى كادوا يموتون جوعاً لو لا أن بعض من كان يحنو عليهم لرحم أو لسبب غيره كان يسرق القليل من الدقيق أو التمر فيلقيه إليهم ليلاً. ثم قصدهم له بالأذى، و لأصحابه بالضرب و التعذيب بالجوع و الوثاق في الشمس، و طردهم إيّاهم من شعاب مكّة، حتّى خرج من خرج منهم إلى الحبشة و خرج هو ﷺ مستجيراً منهم تارة بثقيف، و تارة ببني عامر، و تارة بربيعة الفرس و بغيرهم. ثم أجمعوا على قتله و الفتك[1] به ليلاً حتّى هرب منهم، لا ئذاً بالأوس و الخزرج، تاركاً أهله و ولده و ما حوته يده، ناجيا بحشاشة نفسه، حتّى وصل إلى المدينه. فناصبوه الحرب و رموه بالكتائب، و صدقوه القتال و الكفاح حتّى أدموا فمه و طاح مغشيّاً عليه، و لم يزل منهم في عناء شديد و حروب متّصلة إلى أن أكرمه الله تعالى بنصره و أيّده بظهور دينه. و من له أُنس بالتواريخ يعلم من تفاصيل هذه الأحوال ما يطول شرحه.

* * *

١-فتكت به فتكاً: بطشت به، أو قتلته على غفلة. المصباح المنير: ص ٤٦١ - ٤٦٢.

وَ كَاشَفَ فِي ٱلدُّعَآءِ إِلَـيْكَ حَـامَّتَهُ،

وَ حَـارَبَ فِي رِضَـاكَ أُسْرَتَـهُ، وَ

قَـطَعَ فِي إِحْـيَاءِ دِيـنِكَ رَحِمَـهُ،

«كاشفه بالعداوة» باداه بها أي جاهره من الكشف بمعنى الإضهار و (في)، للتعليل، كاللتين بعدها.

و «الدعاء إلى الله» طلب الخلق إلى توحيده و الإقبال إلى طاعته.

و «حامة الرجل» خاصّته و من يقرب منه، و هو الحميم أيضا و منه الحديث: «انصرف كلّ رجل من وفد ثقيف إلى حامّته»[1] قاله ابن الأثير.

و قال الجوهري: هٰؤلاء حامّة الرجل من أهله و ولده[2].

و في القاموس: هي خاصّة الرجل من أهله و ولده[3].

و «الاسرة» بالضمّ - كغرفة -: و من ضبطه - بالفتح - فقد وَهَم، و هُم رهط الرجل الأدنون، و أصلها من الأسر و هو الشدّ، لأنّ الرجل يشتدّ برهطه و عشيرته و يقوى، بهم.

و «قطع رحمه قطعاً و قطيعة» هجرها.

و «عقّها» أي شقّ عصى اُلفتها و ترك برّها، و الحنو عليها.

و «الرحم» - ككتف - و يخفف بسكون الحاء مع الراء و مع كسرها أيضا في لغة بنى كلاب، و في لغة لهم: بكسر الحاء إتّباعاً لكسرة الراء، و هي موضع تكوين الولد، و وعاؤه في بطن اُمّه.

١-النهاية لإبن الأثير: ج ١، ص ٤٤٦.

٢-الصحاح: ج ٥، ص ١٩٠٧.

٣-القاموس المحيط: ج ٤، ص ١٠٠.

ثم سمّيت القرابة رحماً الكونهم يرجعون إلى رحم واحدة. و اختلف العلماء: في تحقيق معناها.

فقيل: هي خلاف الأجنبي فتعمّ القرابة و الوصلة من جهة الولاء، ذكره الفيومي في المصباح[1].

و قيل: هي قرابة الرجل من جهة طرفيه آباؤه و إن علوا، و أبناؤه و إن سفلوا، و ما يتّصل بالطرفين من الأعمام و العمات و الإخوة و الأخوات و أولادهم.

و قيل: الرحم التي تجب صلتها كلّ رحم بين اثنين لو كان أحدهما ذكراً لم يتناكحا، فعلى هذا لا يدخل أولاد الأعمام و أولاد الأخوال.

و قيل: هي نسبة و إتّصال بين المنتسبين تجمعهما رحم واحدة.

قيل: و هذا يشبه أن يكون دوريّاً و ليس بدوريّ، لأنّ الرحم الواقعة في التعريف بمعنى موضع تكوين الولد، فلا دور و هذامعنى قول بعضهم: هي عام فيكلّ من يجمع بينك وبينه نسب و إن بعد، و هو أقرب إلى الصواب.

و يدلّ عليه ما رواه: علي بن إبراهيم في تفسير قوله تعالى: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ»[2] أنها نزلت في بني أمية[3].

و يؤيّده روايات أُخر.

و في هذه الفقرات: إشارة إلى ما فعله ﷺ مع قومه و عشيرته، و

١-المصباح المنير: ص ٢٢٣.

٢-محمّد: ٢٢.

٣-تفسير القمي: ج ٢، ص ٣٠٨.

أُسرته، و أقربائه من قريش، و بني المطّلب و بني هاشم الذين كذّبوه و حاربوه ليطفؤوا نور الله و يأبى الله إلا أن يتمّ نوره.

فحاربهم و قاتلهم و قتل منهم الجمّ الغفير في بدر، و أُحد، و أسر منهم من أسر، لم تأخذه بهم رأفة و لا عطفته عليهم رحم، غضباً لله تعالى، و طلباً لمرضاته، و إحياءً لدينه، حتّى علت كلمته، و ظهر دينه، و لو كره المشركون.

* * *

وَ أَقْصَى الأَدْنَيْنَ عَلَى جُحُودِهِمْ، وَ
قَرَّبَ الأَقْصَيْنَ عَلَى ٱسْتِجَابَتِهِمْ لَكَ،

«أقصاه» أبعده من قصا الشيىء قصواً من باب – قعد –: إذا بعد.

و «الأدنين و الأقصين» بفتح ما قبل، علامة الجمع فيهما.

«الأقارب و الأباعد» جمع أدنىٰ و أقصىٰ، و أصلهما، الأدنيين و الأقصيين، تحركت ياؤهما المنقلبتان عن واو في الأصل، لأنهما من الدنوّ و القصوّ، و انفتح ما قبلهما فقلّبتا ألفين، ثم حذفتا لإلتقاء الساكنين و بقيت الفتحة قبلهما دليلاً عليهما، و هذا الحكم جار في كلّ مقصور يجمع هذا الجمع فتحذف ألفه دون الفتحة التي قبله لتدلّ عليها. و في التنزيل: «وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ»[1]، «وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ»[2].

و «جحده جحداً و جحوداً» أنكره مع علمه.

و «استجاب له إستجابة» إذا دعاه إلى شيىء فأطاع.

و «على» في الفقرتين: للتعليل: أي لجحودهم، و لإستجابتهم كقوله تعالى: «لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ»[3] أي لهدايته إيّاكم.

و اعلم: أنّ الجحود على نوعين.

أحدهما: جحود تشبيه، إذ المشبّهون الله سبحانه بخلقه، و إن إختلفوا في كيفيّة التشبيه بأسرهم جاحدون له في الحقيقة، و ذلك أنّ المعنى الذي يتصوّرونه و يثبتونه إلٰهاً ليس هو نفس الإلٰه، مع أنّهم ينفون ما سوى ذلك فكانوا نافين للإلٰه الحق في المعنى و جاحدين له.

١–آل عمران: ١٣٩.

٢–ص: ٤٧.

٣–الحج: ٣٧.

و الثاني: جحود من لم يثبت صانعاً، و كلا الفريقين جاحد له من وجه و مثبت له من وجه. أما المشبّهون فمثبتون له صريحاً، جاحدون له لزوماً، و أما الآخرون فبالعكس، إذ كانوا جاحدين له صريحاً من الجهة التي يثبته العقلاء بها و مقرّون به إلتزاماً و اضطراراً. فإنّ كلّ أحد أذا وقع في محنة، و اضطرّ في ضيق، فزع من دون إختيار إلى ربّه و تضرّع إليه في النجاة و الخلاص، و إليه الإشارة بقوله تعالى: «وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّـٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُوراً»[1].

* * *

---

١ ـ الإسراء: ٦٧.

وَ والِ فِيكَ الأَبْعَدِينَ،

وَ عَادِ فِيكَ الأَقْرَبِينَ.

«الموالاة» ضد المعاداة و المراد بالأبعدين و الأقربين: ما هو أعمّ من البعد في النسب و القرب فيه، فيدخل في الأبعدين: الأبعد نسباً أو سبباً، أو ولاءً، أو داراً، و في الأقربين الأقرب كذلك، و كذا الكلام في الأدنين و الأقصين في الفقرتين الأولتين، و لا حاجة إلى تخصيص الأولين بالقرابة و الآخرين بالمكان تفادياً عن التكرار، و التأسيس خير من التأكيد، فإنّ الأفعال كافية في التأسيس، إذ إختصاص الإقصاء و التقريب بالمكان ظاهر، و لا داعي إلى التعميم فيهما حتّى يكونا شاملين للموالاة و المعاداة فيلزم التكرار، و شمولها لهما لزوماً لا ينافي التأسيس.

و قوله عليه السلام: «فيك» في كلا الفقرتين للتعليل: أي لأجلك و فيه إعلام بحبّه و بغضه عليه السلام لله تعالى و هما من أعظم الأعمال، بل هما أوثق عرى الإيمان كما روى عن الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله لأصحابه: أيّ عرى الإيمان أوثق؟ فقالوا: الله و رسوله أعلم، و قال بعضهم: الصّلاة، و قال بعضهم: الزكاة، و قال بعضهم: الصيام، و قال بعضهم: الحج و العمرة، و قال بعضهم: الجهاد، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله: لكلّ ما قلتم فضلٌ، و ليس به، و لكن أوثق عرى الإيمان الحبّ في الله و البغض في الله و تولّي أولياء الله و التبرّء من أعداء الله»[1].

و عن الصادق عليه السلام أيضا قال: من لم يحبّ على الدين و لم يبغض عن الدين فلا دين له»[2] و الأخبار في هذا المعنى كثيرة.

١-الكافي: ج ٢، ص ١٢٥، ح ٦.

٢-الكافي: ج ٢، ص ١٢٧، ح ١٦.

وَ أَدْأَبَ نَفْسَهُ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَتِكَ،
وَ أَتْعَبَهَا بِالدُّعَاءِ إِلَىٰ مِلَّتِكَ،
وَ شَغَلَهَا بِالنُّصْحِ لِأَهْلِ دَعْوَتِكَ.

«دأب الرجل في عمله» - كمنع - إجتهد، و أدأب نفسه و أجيره: أجهدهما.

و «التبليغ و الإبلاغ» الإيصال، و الاسم: البلاغ بالفتح.

و «في» للتعليل.

و «الرسالة» بالكسر لغة: اسم من الإرسال و هو التوجيه، و عرفاً: تكليف الله تعالى بعض عباده بواسطة ملك يشاهده و يشافهه أن يدعو الخلق إليه و يبلّغهم أحكامه، و قد تطلق على نفس الأحكام المرسل به كما وقع هنا.

و «الملة» - بالكسر - لغة: الطريقة المسلوكة، و إصطلاحاً: الطريقة الإلهيّة المجتمعة عليها المثبتة للأحكام المتضمّنة لمصالح العباد و عمارة البلاد و النجاة في المعاد، و الملّة و الشريعة و الدين متّحدة ذاتاً و مختلفة إعتباراً، فإنّ الطريقة الإلهيّة من حيث أنّها يجتمع عليها تسمى ملّة، و من حيث إظهار الله تعالى لها تسمّىٰ شريعة، و من حيث أنّه يطاع بها تسمّىٰ ديناً، و اجهاد الرسول ﷺ نفسه في تبليغ الرسالة، و إتعابه لها في الدعاء إلى الملّة من وجوه:

إحدها: مقاساته للمتاعب الكثيرة و المكاره الشديدة من المشركين في بدء دعوته حتّى قال: «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت»[1].

وقال أمير المؤمنين ؑ مشيراً إلى ذلك: «خاض إلى رضوان الله تعالى

١- الجامع الصغير: ج ٢، ص ١٤٤.

كلّ غمرة، و تجرّع فيه كلّ غُصّة، و قد تلوّن له الأدنون و تألّب عليه الأقصون، و خلعت إليه العرب أعنّتها، و ضربت إلى محاربته بطون رواحلها، حتّى أنزلت بساحته عداوتها من أبعد الدار وأسحق المزار»[١].

الثاني: شدّة حرصه على رجوع الخلق إلى الحقّ، و مبالغته في دعوتهم إليه، و كمال الإهتمام بشأنهم و كثرة تأسّفه و تحسّره على عدم إيمانهم، حتّى خاطبه ربّه بقوله تعالى: «لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ»[٢] أي أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على أن لا يؤمنوا.

و بقوله تعالى: «فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا»[٣] شبّهه برجل الذي فارقه أعزّته و هو يتلهّف على آثارهم، و يهلك نفسه حسرة و تأسّفا على فراقهم.

و قال له: «فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ»[٤].

الثالث: معالجته للأمراض النفسانيّة، و إزالته للأعراض الظلمانيّة من نفوس الجهّال و قلوب أهل الزيغ و الضلال، فإنّ النفوس الجاهلة و ان كانت في أوّل الفطرة قابلة لنور العلم و ظلمة الجهل، لكنّها بمزاولة آلأعمال السيّئة و الأفعال الشهويّة و الغضبيّة صارت كالبهائم و السباع مظلمة الذوات، و رسخت فيها الجهالات و الأخلاق الحيوانيّة و الدواعي السبعيّة، فيحتاج معالجتها إلى جهد جهيد، و عناء شديد، حتّى

١-نهج البلاغة: ص ٣٠٧، الخطبة: ١٩٤.

٢-الشعراء: ٣.

٣-الكهف: ٦.

٤-فاطر: ٨.

يزيل عنها ظلمة الجهل و يجعلها قابلة لنور العلم، فيفيض عليها الحقائق العلميّة و المعارف اليقينيّة، هذا مع تفاوت مراتب الأذهان في قبول التعليم، و تباين الفطن و الأفهام في الإستعداد للتفهيم، و في ذلك من التعب و المشقّة ما لا خفاء به، ألا ترى أنّ طبيب البدن يشقّ عليه علاج الأمراض الصعبة كحمى الدق و السل، و المرض المزمن ما لا يشقّ عليه غيرها، خصوصاً إذا كثرت عليه المرضى و اختلفت أمزجتهم في قبول الدواء، فإن الأنبياء عليهم السلام و من يقوم مقامهم أطبّاء النفوس المبعثون لعلاج أمراضها، كما أنّ الحكماء أطبّاء الأبدان المخصوصون بمداواتها لغاية بقائها على صلاحها أو رجوعها إلى العافية من أمراضها.

رئي المسيح عليه السلام خارجاً من بيت فاجرة مجاهرة بالفجور، فقيل: يا روح الله ما تصنعها هنا؟ فقال: إنّما يأتي الطبيب المرضى[1].

الرابع: إشتغاله حال التبليغ و الدعوة بالخلق عن الحق، و الإلتفات من المقام الأسنى إلى المقام الأدنى، فإنّه ﷺ لمّا كان دائم التوجّه إلى الملأ الأعلى، مستغرقا في الإلتفات إليه، مرتبطاً به أشدّ الإرتباط، مقبلاً عليه و كان مع ذلك منصوباً لتشريع الشريعة، و تأسيس الملّة، و إرشاد الخلائق، و إفادة الحقائق، لم يكن له بدّ من النزول عن ذلك المقام العلوي إلى هذا العالم السفلي، فكان يجد عند ذلك من الجهد و التعب و المشقّة و النصب ما لا مزيد عليه، و من هنا قال ﷺ: «إنّه لَيُغَان على قلبي و إنّي لأستغفرالله في اليوم مائة مرّة»[2].

قوله عليه السلام: «و شغلها بالنصح لأهل دعوتك» الشغل بالضمّ وبضمتين:

١-لم نعثر عليه.

٢-سنن أبي داود: ج ٢، ص ٨٤، ح ١٥١٥.

خلاف الفراغ، و شغله -كمنعه-،شغلاً بالفتح، و يضم و لا تقل: أشغله إشغالاً فإنّها لغة متروكة أو رديّة.

و مما يحكى من أدب الصاحب بن عباد رحمة الله، إنّ بعض العمّال كتب إليه: إن رأى مولانا أن يأمر بإشغالي ببعض أشغاله، فوقع تحت الرقعة: من كتب إشغالي لا يصلح لأشغالي.

و يقال: «إشتغل» بأمره فهو «مشتغل» بالبناء للفاعل نصّ عليه الأزهري[1] و غيره. و قال ابن فارس: و لا يكادون يقولون: «إشتغل» و هو جائز، يعني بالبناء للفاعل[2].

و «النصح» بالضمّ مصدر نصح له من باب - منع -، هذه اللغة الفصيحة، و عليها قوله تعالى: «إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ»[3] و في لغة يتعدّى بنفسه، فيقال: نصحته، و الاسم: النصيحة، و هي كلمة جامعة، و معناها: حيازة الخير للمنصوح له، من نصحت العسل إذا صفّيته من الشمع، شبّهوا تخليص العقول من الغشّ بتخليص العسل من الشمع.

و قال الراغب: أصلها من نصحت الثوب إذا خطته، و هي إخلاص المحبّة لغيرك في إظهار ما فيه صلاحه إنتهى[4].

و المراد بنصحة ﷺ لهم: إرشادهم إلى مصالح دينهم و دنياهم، و تعليمهم إيّاها، و عونهم عليها، و أمرهم بالمعروف و نهيهم عن المنكر، و الذبّ عنهم و عن أعراضهم، و السخاء عليهم بموجوده، و الإيثار لهم و

١-المصباح المنير: ص ٣١٦.

٢-المصباح المنير: ص ٣١٦.

٣-هود: ٣٤.

٤-المفردات: ص ٤٩٤، مع اختلاف يسير في العبارة.

حسن الخلق معهم، و اغتفار سيئاتهم وإكرامهم على حسناتهم و الدعاء لهم، و بالجملة جلب خير الدنيا و الآخرة إليهم خالصاً مخلصاً لوجه الله، و من ثم قيل: النصيحة في و جازة لفظها و جميع معانيها كلفظ الفلاح الجامع لخير الدنيا و الآخرة.

و «الدعوة» - بالفتح -: اسم من الدعاء و ما دعوت اليه من طعام و شراب يقال: نحن في دعوة فلان، و المراد بها هنا: الدعوة التي نسبها الله تعالى إلى نفسه في قوله سبحانه: «لَهُ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ»[1]. عن ابن عباس: «دعوة الحق: قول لا إله إلا الله»[2].

قيل: و إنّما سمّيت دعوة لأنّها التي يدعى إليها أهل الملل الكافرة.

و قيل: الدعوة: العبادة، فإنّ عبادته تعالى هي الحق و الصدق.

و قيل: هي بمعنى الدعاء الحق: أي الدعوة الثابتة الواقعة في محلّها المجابة عند و قوعها. و إضافتها إلى الحقّ، للإيذان بملابستها له و اختصاصها به و كونها بمعزل عن شائبة الباطل، كما يقال: كلمة الحقّ.

قال الزجاج: و جائز أن يكون ـ و الله أعلم ـ دعوة الحق أنّه من دعا الله تعالى موحّداً استجيب له دعاؤه[3] إنتهى.

فالمراد بقوله ﷺ لأهل دعوتك: إمّا أهل توحيدك، أو أهل عبادتك، أو أهل دعائك. و يحتمل: أن يكون من قبيل الإضافه إلى الفاعل، أي الذين دعوتهم فأجابوا دعوتك و على كلّ وجه فالمراد بهم: المسلمون كما يقتضيه تشريفهم باضافتهم إلى الدعوة المضافة إليه.

١ـ الرعد: ١٤.

٢ـ مجمع البيان: ج ٥ - ٦، ص ٢٨٣.

٣ـ لسان العرب: ج ١٤، ص ٢٥٨.

قال بعضهم: و لا يبعد أن يراد بتبليغ الرسالة: مطلق الرسـالة دون تبين الأحكام الأُصوليّة و الفروعيّة، و بالدعاء إلى الملّة: تبليغ الأحكام الأصولية كما يشعر به لفظ الملّة، و بالنصح لأهل الدعوة: تبليغ الأحكام المفصّلة الشرعيّة الفرعيّة كما يشعر به لفظ النصح، هذا كلامه و الله أعلم.

* * *

وَ هَاجَرَ إِلىٰ بِلاَدِ الْغُرْبَةِ، وَ مَحَلِّ النَّأْيِ

عَنْ مَوْطِنِ رَحْلِهِ، وَ مَوضِعِ رِجْلِهِ،

وَ مَسْقَطِ رَأْسِهِ، وَ مَأْنَسِ نَفْسِهِ،

«هاجر مهاجرة» إذا خرج من أرض إلى أرض، و الاسم: الهجرة بالكسر، و الضم قليل.

قال الواحدي: المهاجر الذي فارق عشيرته و وطنه، و أصله من الهجر الذي هو ضد الوصل[1].

و «البلاد» - بالكسر - جمع بلدة مؤنث بلد. و هو من الأرض ما كان مأوىً للإنسان و إن لم يكن فيه بناء و جمعه: بلدان بالضمّ.

و «الغربة» - بالضمّ - البعد و النوى، غرب الشخص بالضمّ غرابة كشرف شرافة: بَعُدَ عن وطنه، فهو غريب فعيل بمعنى فاعل. و غرّبته أنا تغريباً، فتغرّب و اغترب و غرّب بنفسه أيضا تغريباً، و أغرب بالألف: دخل في الغربة.

و «النأي» - بالهمز - البعد، نأي نأياً من باب - نفع - بعد، و يتعدى بنفسه وبالحرف وهو الأكثر ،فيقال: نأيته ونأيت عنه،ويتعدى بالهمزة إلى ثان. فيقال: أنأيته عنه، و المراد ببلاد الغربة و محلّ النأي: مهاجرة ﷺ و هو المدينة المنوّرة و جمعيّة البلاد باعتبار ما حولها من القرى.

و قوله: «عن موطن رحله» متعلّق بهاجر، و يحتمل تعلّقه بالنأي.

و «الموطن» الوطن، و هو مكان الإنسان و مقرّه.

و «الرحل» - بفتح الراء و سكون الحاء المهملتين - مركب للبعير و ما يستصحبه المسافر من الأثاث.

---

١ -تهذيب الأسماء و اللغات: الجزء الثاني من القسم الثاني، ص ١٧٩.

و «رحل الشخص» مأواه و منزله في الحضر، و منه: «إذا ابتلّت النعال فالصلاة في الرحال»[١].

و إنّما قيل لأمتعة المسافر «رحل» لأنّها مأواه في السفر.

و المراد به هنا: إمّا رحل البعير، أو أثاث المسافر، فيكون موطن رحله: كناية عن مكان إقامته كما يقال: محطّ رحله و ملقى رحله، و فلان حطّ رحله و ألقى رحله، أي أقام و إن لم يكن له رحل، أو مأواه و منزله، أي الموطن الذي فيه مأواه مسكنه.

و «موضع رجله» كناية عن منشئه و مرباه، لأنّه أوّل موضع وضع فيه رجله حين نشأ و أخذ يمشي، كما أنّ مسقط رأسه كناية عن مولده.

و «المسقط» - كمقعد و منزل - موضوع السقوط، و سقط الولد من بطن أُمّه: خرج. و إنّما أُضيف المسقط إلى الرأس؛ لأنّ أوّل ما يسقط من الولد رأسه، يقال: هذا البلد مسقط رأسي، قال الشاعر:

خرجنا جميعاً من مساقط رؤوسنا   على ثقة منّا بجود ابن عامر

و لا ينافي ذلك ما ورد في بعض الأخبار: «إنّ من خصائصه ﷺ أنّه وقع على قدميه حين الولادة لا على راسه تكريماً له و تعظيما»[٢]. لأنّ مسقط رأس الرجل صار كناية عن مولده سواء ولد على رأسه أو على رجليه بناء على الغالب عند الولادة.

على أنّ المشهور: إنّه ﷺ وقع على الأرض معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء[٣]. و الله أعلم.

١-وسائل الشيعة: ج ٣، ص ٤٧٨، ح ٤.

٢-السيرة الحلبيّة: ج ١، ص ٥٤.

٣-بحار الأنوار: ج ١٥، ص ٢٩٧، ح ٣٦.

مو «المأنس» - بفتح العين و كسرها - محلّ الأُنس بالضمّ، و هو ضد الوحشة، أي المحلّ الذي كانت تأنس به نفسه.

و المراد بموطن رحله إلى آخره: مكّة شرّفها الله تعالى، و قد كان يعزّ عليه صلوات الله عليه فراقها، و الهجرة عنها روي: إنّه لمّا خرج منها مهاجراً إلتفت إليها فظنّ أنّه لا يعود إليها و لا يراها بعد ذلك فأدركته رقّة و بكى، فأتاه جبرئيل عليه السلام و تلا عليه قوله تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ»[1][2].

و قيل: نزلت عليه حين بلغ الجحفة في مهاجرته، و قد إشتاق إلى مولده و مولد آبائه و حرم إبراهيم عليه السلام، فنزل جبرئيل عليه السلام فقال له: أتشتاق إلى مكّة؟ قال: نعم، فأوحاها إليه[3].

و روى عبد الله بن الحمراء: «إنّه سمع رسول الله ﷺ و هو واقف على راحلته يقول مخاطباً مكّة: «و الله إنّك لخير أرض الله، و أحبّها إلى الله، و لو لا إنّي أُخرجت منك ما خرجت»[4].

تبصرة

قيل: في هذه الفقرات إشارة إلى أنّ مكّة ـ شرّفها الله أفضل من سائر البقاع، لأنّه ﷺ أفضل الأنبياء، فينبغي أن يكون موطنه و منشأه و مولده و مأنسه أفضل الأماكن. و قد اختلف العلماء من العامّة في التفضيل بين مكّة و المدينة.

---

١ ـ القصص: ٨٥.

٢ ـ مجمع البيان: ج ٧ - ٨، ص ٢٦٨، نقلاً بالمعنى.

٣ ـ الدر المنثور: ج ٥، ص ١٣٩.

٤ ـ معجم البلدان: ج ٥، ص ١٨٣.

فذهب جمهورهم إلى أفضليّة المكّة، و بعضهم إلى أفضليّة المدينة، و لكلّ من الفريقين حجج عقليّة و نقليّة يطول ذكرها، و أجمعوا على أنّ الموضع الذي ضمّ أعضاء و الشريفة أفضل بقاع الأرض.

و المستفاد من أحاديث أهل البيت عليهم السلام: أن مكّة أفضل من سائر الأرض، و أنّ الصّلاة في المسجد الحرام أفضل من الصّلاة في مسجد النبي

امّا كون مكّة أفضل من سائر الأرض فيدلّ عليه ما رواه: رئيس المحدّثين في الفقيه بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أحبّ الأرض إلى الله مكّة، و ما تربة أحبّ إلى الله من تربتها، و لا حجر أحبّ إلى الله من حجرها، ولا جبل أحبّ إلى الله من جبالها، ولا ماء أحبّ إلى الله من مائها[1].

و أمّا كون الصّلاة في المسجد الحرام أفضل من الصّلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وآله فيدلّ عليه صريحاً ماروواه: رئيس المحدّثين أيضا في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن مسعد بن صدقة: عن الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: صلاة في مسجدي تعدل عند الله عشرة آلاف صلاة في غيره من المساجد إلا مسجد الحرام فإنّ الصّلاة فيه تعدل مائة ألف صلاة[2]. و في هذا المعنى أخبار أخر.

و قال شيخنا الشهيد رحمه الله في الدروس: مكّة أفضل بقاع الأرض ما عدا قبر رسول الله صلى الله عليه وآله و روي: في كربلا على ساكنها السلام، مرجّحات[3]. و الأقرب أن موضع قبور الأئمة عليهم السلام كذلك أما البلدان التي هم فيها فمكة أفضل منها حتّى المدينة.

١-من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٢٤٣، ح ٢٣٠٤.

٢-ثواب الأعمال: ص ٣٠، ح ١، باب ثواب الصّلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وآله.

٣-الكافي: ج ٤، ص ٥٨٧، ح ٦.

و روى صامت عن الصادق عليه السلام: «إن الصّلاة في المسجد الحرام تعدل مائة ألف صلاة»[١].

و مثله رواية السكوني عنه، عن آبائه عنهم عليهم السلام.

و اختلفت الروايات في كراهة المجاورة بها و استحبابها و المشهور الكراهة. إمّا لخوف الملالة و قلّة الإحترام. و إمّا لخوف ملابسة الذنوب بها أعظم، و قال الصادق عليه السلام: كلّ الظلم فيها إلحاد حتّى ضرب الخادم[٢]. و لذلك كرّه الفقهاء سكنى مكّة. و إمّا ليدوم شوقه إليها إذا أسرع خروجه منها و لهذا ينبغي الخروج منها عند قضاء المناسك

و روي: أنّ المقام بها يقسّي القلب[٣].

و الأصحّ: استحباب المجاورة بها للواثق من نفسه بعدم هذه المحذورات لما رواه ابن بابويه عن الصادق عليه السلام: من جاور بمكّة سنة غفر الله له ذنبه و لأهل بيته و لكلّ من استغفرله و لعشيرته و لجيرانه ذنوب تسع سنين قد مضت و عصموا من كلّ سوء أربعين و مائة سنة[٤].

و روي أنّ الطاعم بمكّة كالصائم فيما سواها، و صيام يوم بمكّة يعدل صيام سنة فيما سواها[٥].

و من ختم القرآن بمكّة من جمعة إلى جمعة أو أقل أو أكثر كتب الله له

١-الكافي: ج ٤، ص ٥٢٦، ح ٥.

ج-الكافي: ج ٤، ص ٥٢٦، ح ٦.

٢-الكافي: ج ٤، ص ٥٢٧، ح ٢.

٣-علل الشرايع: ص ٤٤٦، ح ٣.

٤-من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٢٢٧، ح ٢٢٦٠.

٥-من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٢٢٧، ح ٢٢٥٩.

من الأجر و الحسنات من أوّل جمعة كانت في الدنيا إلى آخر جمعة تكون، و كذا في سائر الأيّام[1].

و قال بعض الأصحاب: إن جاور للعبادة استحب، و إن كان للتجارة و نحوها كُره، جمعاً بين الروايات.

و روى محمّد بن مسلم، عن الباقر عليه السلام: لا ينبغي للرجل أن يقيم بمكّة سنة[2].

و فيها إشارة إلى التعليل بالملل و أنّه لا يكره أقلّ من سنة[3].

* * *

١-من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٢٢٦، ح ٢٢٥٦.

٢-علل الشرايع: ص ٤٤٦، ح ٤.

٣-الدروس للشهيد: ص ١٣٩.

إِرَادَةً مِـنْهُ لإِعْزَازِ دِيـنِكَ، وَ
اَسْـتِنْصَاراً عَـلَى أَهْـلِ الْكُـفْرِ بِكَ.

«الأرادة» هي العزم على الفعل أو الترك بعد تصوّره و تصوّر الغاية المترتّبة عليه من خير أو نفع أو لذّة أو نحو ذلك، و هـي: أخـصّ مـن المشيئة، لأنّ المشيئة إبتداء العزم على الفعل، فنسبتها إلى الإرادة نسبة الضعف إلى القوّة، و الظنّ إلى الجزم، فإنّك ربما شئت شيئاً و لا تريده لمانع عقليّ أو شرعيّ.

و أمّا الإرادة فمتى حصلت صدر الفعل لا محالة، و قد يطلق كلّ منهما على الأُخرى توّسعاً.

و إنتصابها على المفعول لأجله: أي هاجر لأجل إرادته.

«إعزاز دينك» أي لتقويته، من العزة بمعنى الشدّة و القوّة.

قال في المحكم: عززت القوم و أعززتهم و عـزّزتهم: قـوّيتهم، و في التنزيل: «فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ»[1] أي فقوّينا و شدّدنا[2] إنتهى.

أو لإكرام دينك من عزّ عـلَيّ يـعزّ عـزّاً و عـزّة و عـزازة: كـرم، و أعززته: أكرمته.

و «الدين» - في اللغة - الطاعة، و في العرف الشرعي: هو الشريعة الصادرة بواسطة الرسل عليهم السلام، و لمّا كان إتّباع الشريعة طاعة مخصوصة كان ذلك تخصيصاً من الشارع للعام بأحد مسمّياته، و لكثرة إستعماله صار حقيقة دون سائر المسمّيات، لأنّه المتبادر إلى الفهم حال إطلاق لفظة الدين.

١- يس: ١٤.

٢- المحكم في اللغة لابن سيده: ج ١، ص ٣٣.

و «الإستنصار» طلب النصرة، إستنصره و إستنصر به فنصره على عدوّه: أعانه و قوّاه.

و قوله ﷺ «بك»: يحتمل تعلّقه به و بالكفر، إذ يقال: كفره و كفر به.

و المراد بأهل الكفر: أهل الملل المتفرّقة و الأهواء المنتشرة الذين كانوا عند مقدمه ﷺ كما قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: بعث الله محمّد ﷺ لإنجاز عدته، و تمام نبوّته، مأخوذاً على النبيين ميثاقه، مشهورة سماته، كريماً ميلاده، و أهل الأرض يومئذٍ ملل متفرّقة، و أهواء منتشرة، و طرائق متشتّة، بين مشبّه لله بخلقه، أو ملحد في إسمه، أو مشير إلى غيره، فهداهم به من الضلالة، و أنقذهم بمكانه من الجهالة[1].

قال بعض العلماء: إعلم أن الخلق عند مقدمه ﷺ إمّا عليه اسم الشرائع، أو غيرهم.

أمّا الأوّلون: فاليهود و النصارى و المجوس، و قد أديانهم إظمحلّت من أيديهم، و إنّما بقوا متشبّهين بأهل الملل، و قد كان الغالب عليهم دين التشبيه و مذهب التجسّم، كما حكى القرآن الكريم عنهم: «وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ»[2]، «وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ»[3].

و المجوس أثبتوا أصلين أسندوا إلى احدهما: الخير و إلى الثاني: الشرّ، و سمّوهما: النور و الظلمة، و بالفارسية: يزدان و أهرمن، ثم زعموا أنّه جرت بينهما محاربة، ثم إنّ الملائكة توسّطت و أصلحت بينهما على أن

١-نهج البلاغة: ص ٤٤، الخطبة ١.

٢-المائدة: ١٨.

٣-التوبة: ٣٠.

يكون العالم السفلي خالصاً لأهرمن الذي هو الظلمة، سبعة آلاف سنة، ثم يخلّي العالم و يسلّمه إلى يزدان الذي هو النور، إلى غير ذلك من هذيانهم و خبطهم.

و أمّا غيرهم من أهل الأهواء المنتشرة و الطرائق المتشتّة فمنهم: العرب أهل مكّة و غيرهم، و قد كانت منهم معطّلة، و منهم محصّلة نوع تحصيل. أمّا المعطلة: فصنف منهم أنكروا الخالق و البعث و الإعادة، و قالوا: بالطبع المحيي و الدهر المفني، و هم الذين حكى القرآن عنهم: «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ»[1] و قصروا الموت و الحياة على تحلّل الطبائع المحسوسة و تركّبها، فالجامع هو الطبع، و المهلك هو الدهر: «وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ»[2].

و صنف منهم: أقرّوا بالخالق و إبتداء الخلق عنه، و أنكروا البعث و الإعادة، و هم المحكيّ عنهم في القرآن الكريم: «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ»[3]

و صنف منهم: إعترفوا بالخالق و نوع من الإعادة، لكنّهم عبدوا الأصنام و زعموا أنّها شفعاؤهم عند الله كما قال تعالى: «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ»[4].

١-الجاثية: ٢٤.

٢-الجاثية: ٢٤.

٣-يس: ٧٨ - ٧٩.

٤-يونس: ١٨.

و من هٰؤلاء: قبيلة ثقيف و هم أصحاب اللات بالطائف و قريش، و بنو كنانة، و غيرهم أصحاب العزّى.

و منهم: من كان يجعل الأصنام على صور الملائكة و يتوجّه بها إلى الملائكة.

و منهم: من كان يعبد الملائكة كما قال تعالى: «بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ»[1].

و أمّا المحصّلة: فقد كانوا في الجاهلية على ثلاثة أنواع من العلوم.

أحدها: علم الأنساب و التواريخ و الأديان.

و الثاني: علم تعبير الرؤيا.

و الثالث: علم الأنواء، و ذلك ممّا يتولاه الكهنة و القافة منهم.

و عن النبي ﷺ: «من قال: مطرنا بنوء كذا فقد كفر بما أنزل على محمّد»[2].

و من غير العرب: البراهمة من أهل الهند، و مدار مقالتهم على التحسين و التقبيح العقليين و الرجوع في كلّ الأحكام إلى العقل و إنكار الشرائع، و إنتسابهم إلى رجل منهم يقال له: براهام.

و منهم: أصحاب البددة و البددة[3] عندهم شخص في هذا العالم لم يولد و لا ينكح و لا يطعم و لا يشرب و لا يهرم و لا يموت.

و منهم: أهل الفكرة، و هم أهل العلم منهم بالفلك و أحكام النجوم.

١-سبأ: ٤١.

٢-سنن أبي داود: ج ٤، ص ١٦، ح ٣٩٠٦، مع اختلاف يسير في العبارة، و كذا جاء في الموطأ: ج ١، ص ١٩٢، ح ٤، و مسند أحمد بن حنبل: ج ٤، ص ١١٧.

٣-(الف) و (ج) البدوة و البدوة.

و منهم: أصحاب الروحانيّات الذين أثبتوا و سائط روحانيّة تأتيهم بالرسالة من عند الله في صورة البشر من غير كتاب فتأمرهم و تنهاهم.

و منهم: عبدة الكواكب.

و منهم: عبدة الشمس.

و منهم: عبدة القمر، و هؤلاء يرجعون بالأخرة إلى عبادة الأصنام، إذ لا تستمرّ لهم طريقة إلا بشخص حاضر ينظرون إليه و يرجعون إليه في مهمّاتهم، و لهذا كان أصحاب الروحانيّات و الكواكب يتّخذون أصناماً على صورها، فكان الأصل في وضع الأصنام ذلك، إذ يبعد ممّن له أدنى فطنة أن يعمل خشباً أو حجراً بيده ثم يتّخذه إلهاً إلا أنّ الخلق لما عكفوا عليها و ربطوا حوائجهم بها من غير إذن شرعي و برهان من الله تعالى كان عكوفهم عليها و عبادتهم لها إثباتاً لإلٰهيّتها و وراء ذلك من أصناف الآراء الباطلة و المذاهب الفاسدة أكثر من أن تحصى و هي مذكورة في الكتب المصنّفة في هذا الفنّ، و يدخل أربابها جميعهم تحت أهل الكفر.

* * *

حَتَّىٰ اَسْتَتَبَّ لَهُ مَا حَاوَلَ فِي أَعْدَآئِكَ،

وَ اَسْتَتَمَّ لَهُ مَا دَبَّرَ فِي أَوْلِيَآئِكَ

قال ابن الأثير في النهاية في حديث الدعاء: حتّى استتبّ له ما حاول في اعدائك: أي إستقام و إستمرّ[1].

و قال الجوهري: إستتب له الأمر: أي تهيّأ و استقام[2].

و قال الزمخشري في الأساس: استتبّ له الأمر: أي إستقام و تمّ، و يجوز أن يقال للإستقامة و التمام: الإستتباب، أي طلب التباب لأنّ التباب يتبع التمام إنتهى[3].

يريد بالتباب: النقص و الهلاك لأنّ الشي إذا تمّ نقص و خلص، فكأنّه هلك.

و «حاول الشيء» أراده. و قيل المحاولة: طلب الشيء بحيلة. و «استتم» أي تمّ كقر و استقرّ قال الرضى: ولابدّ في «إستقرّ» من مبالغة[4].

و «دبّر الأمر تدبيراً» فعله عن فكر و رويّة، مأخوذ من الدّبر كأنّه نظر في دبره أي في عاقبته و آخرته. و مفعولاً حاول و دبّر محذوفان: أي ماحاوله و دبّره. و المراد بما حاوله في الأعداء غلبته عليهم و القهر لهم، و بما دبّر في الأولياء صدق رغبتهم في الجهاد و إجتماع قلوبهم عليه لما عرفهم من عظيم فضله و جزيل أجره فعلم حينئذٍ أنّهم سيغلبون و ينتصرون.

١-النهاية لإبن الأثير: ج ١، ص ١٧٨.

٢-الصحاح: ج ١، ص ٩٠.

٣-أساس البلاغة: ص ٥٩.

٤-شرح الشافية: ج ١، ص ١١١.

فَنَهَدَ إِلَيْهِمْ مُسْتَفْتِحاً بِعَوْنِكَ،

وَ مُتَقَوِّياً عَلَى ضَعْفِهِ بِنَصْرِكَ،

«نهد إلى العدوّ نهداً» من بابي -نفع و قتل -: نهض و برز، و الفاعل ناهد، و الجمع نهّاد، مثل كافر و كفّار، و ناهدته مناهدة: ناهضته، و تناهدوا في الحرب: نهض بعضهم إلى بعض للمحاربة.

و «مستفتحاً» أي مستنصراً و طالباً للفتح، فالباء: للإستعانة يقال: فتح الله على نبيّه، أي نصره، و هو يستفتح الله للمسلمين على الكفّار.

و يحتمل أن يكون بمعنى مفتتحاً و الباء للملابسة، أي مفتتحاً للجهاد حال كونه ملتبساً بعونك، أو للسببيّة أي بسبب عونك له.

و «متقوّياً» اسم فاعل من تقوّى، أي صار ذا قوّة.

و «على» بمعنى مع، أي مع ضعفه، مثلها في قوله تعالي: «وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ»[1].

و «الضعف» - بالفتح و الضمّ - خلاف القوّة.

و قيل: هو بالضمّ في الجسد، و بالفتح في العقل و الرأي.

و يروى عن ابن عمر انّه قال: قرأت على النبي ﷺ: الذي خلقكم من ضعف بالفتح، فأقرأني «من ضُعف» بالضمّ[2].

و «الضعف» - محركة - لغة في الضعف حكاها ابن الأعرابي[3].

و «النصر» الإعانة على العدو، و فيه إشارة إلى أن إستفتاحه ﷺ و تقوّيه على الكفّار إنّما كان بعون الله و نصره، لا بالأسباب الظاهرة و

١-البقرة: ١٧٧.

٢-الدر المنثور: ج ٥، ص ١٥٨.

٣-لسان العرب: ج ٩، ص ٢٠٣.

التدبير الذي دبّره، كما قد يتوّهم من الفقرة السابقة، فإنّها بمعزل عن التأثير، و إنّما التأثير مختصّ به تعالى كما قال تعالى: «وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ»[1] أي كائن من عنده من غير أن يكون فيه شركة من جهة الأسباب و العدد و إنّما هي مطابقة له بطريق جريان السنّة الإلهيّة.

* * *

---

١ –آل عمران: ١٢٦.

فَغَزَاهُمْ فِي عُقْرِ دِيَارِهِمْ، وَ هَجَمَ

عَلَيْهِمْ فِي بُحْبُوحَةِ قَرَارِهِمْ.

«غزاه غزواً» أراده و قصده كاغتزازه، و منه مغزى الكلام أي مقصده. و غزا العدو: سار إلي قتالهم و إنتهابهم غزواً و غزواناً غزاوة. و قيل: إنّما يكون غزو العدوّ في بلاده.

و «عقر الدار» - بضمّ العين و فتحها - أصلها، و قيل: وسطها، قاله في المحكم[1].

و قال الأزهري: قال أبو عبيد: سمعت الأصمعي يقول: عُقر الدار بالضمّ في لغة أهل الحجاز. فأمّا أهل نجد فيقولون: عَقر بالفتح، و منه قيل: العَقار ـ بالفتح و هو المنزل و الأرض و الضياع[2].

و قال بعضهم: عقر الدار: أصلها في لغة الحجاز، و تضمّ العين و تفتح عندهم، و عقرها معظمها في لغة غيرهم و تضمّ لا غير[3].

و قال الزجاج: عقر دار القوم: أصل مقامهم الذي عليه معوّلهم، و إذا انتقلوا منه لنجعة رجعوا إليه[4].

و «الديار» جمع دار، و هي المحل بجميع البناء و العرصة و البلد.

قال الجوهري: الدار مؤنثة و إنّما قال تعالى «وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ»[5] و ذكّر على معنى المثوى كما قال تعالى: «نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ

١ـالمحكم لابن سيده: ج ١، ص ١٠٦.

٢ـتهذيب اللغة: ج ١، ص ٢١٧.

٣ـالمصباح المنير: ص ٤٢١.

٤ـتهذيب الأسماء و اللغات: الجزء الثاني من القسم الثاني، ص ٢٨.

٥ـالنحل: ٣٠.

مُرْتَفَقاً»[1] فأنث على المعنى و أدنى العدد أدؤُر؛ و الهمزة فيه مبدلة من واوٍ مضمومةٍ. و لك أن لا تهمز و الكثير ديار مثل جبلٍ و أجبلٍ و جبالٍ، و دور أيضاً مثل أسَدٍ و أُسْدٍ[2] إنتهى.

و «هجم عليه هجوماً» - من باب قعد - دخل بغتة على غفلة منه.

و «بحبوحة الدار و المكان» - بالضمّ - وسطه، بحبح و تبحبح: إذا تمكّن و توسّط المنزل و المقام.

و «القرار» - بالفتح - المكان الذّي يستقرّ فيه. و هذا من جملة ما حاوله عليه الصّلاة و السلام في أعداء الله و دبّره في أوليائه إذ غزا الكفّار في عقر ديارهم و بحبوحة قرارهم ليكون أعظم في ذلّهم و أشدّ في هوانهم كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فو الله ما غُزي قوم في عقر دارهم إلا ذلّوا»[3].

قيل: و علة ذلك أنّ للأوهام أفعالاً عجيبة في الأبدان تارة بزيادة القوّة و تارة بنقصانها حتّى أنّ الوهم ربّما كان سبباً لمرض الصحيح لتوهّمه المرض و بالعكس فكان السبب في ذلّ من غُزي في داره و إن كان معروفاً بالشجاعة هو الأوهام، أمّا أوهامهم، فلأنّها تحكم بأنّه لم يقدم على غزوهم في مكانهم إلا لقوة غازيهم و إعتقاده فيهم الضعف بالنسبة إليه فتنفعل إذن نفوسهم عن تلك الأوهام و تنقهر عن المقاومة، و تضعف عن الإنبعاث، و تزول غيرتها و حميّتها، فتحصل على طرف رذيلة الذلّ.

و أمّا أوهام غيرهم فلأنّ الغزو الذي يلحقهم يكون باعثاً لكثير من

١-الكهف: ٣١.

٢-الصحاح: ج ٢، ص ٦٥٩ - ٦٦٠.

٣-نهج البلاغة: ص ٦٩،الخطبة ٢٧.

الأوهام على الحكم بضعفهم و محرّكاً لطمع كلّ طامع فيهم فيثير ذلك لهم أحكاماً وهميّة تعجزهم عن المقاومة فتكون سبباًللإنتصارعليهم و القهر لهم و الايقاع بهم.

أمّاالذين غزاهم ﷺ في عقر ديارهم فقبائل كثيرة.

منهم: بنو قينقاع بفتح القاف و سكون الياء المثنّاة من تحت و تثليث النون و الضمّ أشهر ثم قاف مفتوحه و بعد الألف عين مهملة و هم: حيّ من اليهود منازلهم عند جسر بطحان ممّايلي العالية. حاصرهم ﷺ في حصنهم حتّى نزلوا على حكمه فربطهم ثم أجلاهم.

و «غـطفان» غـزاهـم بـنجد فـلما سمعوا بـهبطه ﷺ هـربوا في رؤوس الجبال.

و «بنو النضير» قبيلة كبيرة من اليهود، وكانوا أهل حصون و عقار و نخل كثير غزاهم ﷺ في أماكنهم و حاصرهم في حصونهم خمسة عشر يوماً فجهدهم الحصار فأرسوا اليه ﷺ إنا نخرج من بـلادك فأمـرهم بالخروج فخرجوا.

و «أنمار و ثعلبة و غيرهم» جمعوا جموعا لقصد المسلمين فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فمضى إليهم حتّى أتى محالّهم بـذات الرقـاع فـهربوا إلى رؤوس الجبال فلم يجد المسلمون إلا نسوة فأخذوهنّ.

و «أهل دومة الجندل» قال سعد: غزاها النبي ﷺ و نزل بسـاحة أهلها فلم يجـدوا إلا الأنعام و الشياة فهجم على ما شـيتهم و رعـاتهم فأصاب من أصاب، و هرب في كلّ وجه من هرب.

و «بنو المصطق» و هم بطن من خزاعة غزاهم في قرارهم، و هو ماء لهم يسمّى المريسيع بالتصغير و العين المهملة في آخره. فهجم عـليهم و

مماأغاروهم غارون و أنعامهم تسق على الماء فقاتل مقاتلتهم و سبى ذراريهم و هم على الماء.

و «بنو قريظة» و هم إحدى قبائل اليهود غزاهم ﷺ في أماكنهم و حاصرهم في حصنهم خمساً وعشرين ليلة حتّى جهدهم الحصار، فنزلوا على أن يحكم فيهم سعد بن معاذ بحكمه. فحكم فيهم: بقتل الرجال، و غنم الأموال، و سبي الذراري و النساء. فقال له رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع أرقعة فجاء بهم إلى المدينة مقرّنين في الأصفاد، و هم ثمانمائة رجل أو أكثر، ثم ضرب أعناقهم.

و «بنو الحيّان» غزاهم في منازلهم فهربوا و تمنّعوا بشعف الجبال.

و «يهود خيبر» غزاهم في ديارهم، و حاصرهم في حصونهم حتّى أنزلهم من صياصيهم و كان قدم عليهم ليلاً فلم يشعروا بقدومه فلمّا أصبحوا فتحوا حصونهم و خرجوا بمساحيهم و مكاتلهم إلى أعمالهم، فلمّا رأوه قالوا: هذا و الله محمّد و الخميس معه فولّوا هاربين إلى حصونهم و جعل ﷺ يقول: الله أكبر خربت خيبر و فإذا نزلنا بساحة قوم «فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ»[١]. ثم حاصرهم حتّى فتح الله عليه جميع حصونهم و هي عشرة.

و «يهود وادى القرى» غزاهم و حاصرهم ليالى و فتح الوادي و أصاب المسلمون به أموالاً كثيرة و أمتعة و ميرة[٢].

و «قريش» غزاهم بمكّة و فتحها فكان الفتح المبين و النصر العزيز.

و «هوازن» غزاهم بحنين.

١ـالصّافات: ١٧٧.

٢ـالميرة بكسر الميم، و هي الطعام، المصباح المنير: ص ٥٨٧.

و «ثقيف» غزاهم بالطائف. هٰؤلاء الذين غزاهم ﷺ بنفسه في عقرِ ديارهم، و هجم عليهم في بحبوحة قرارهم سوى غزواته الأُخر، و سوى سراياه، وكان جميع غزواته بنفسه الشريفة: ستًّا و عشرين غزوة، و جميع سراياه: ستّاً و ثلاثين سريّة، و تفصيل ذلك تتكفّل به كتب السير و الله أعلم.

* * *

حَتَّىٰ ظَهَرَ أَمْرُكَ وَ عَلَتْ

كَلِمَتُكَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ.

«ظهر الشيء يظهر» من باب – منع –، ظهوراً: تبيّن و برز بعد الخفاء.

و ظهر عليه: غلب و علا و أظهره الله.

و «أمر الله تعالى» هنا دينه و شريعته كما فسّر به قوله تعالى: «وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ»[1] أي غلب دينه و علا[2].

و «العلو» الارتفاع و الغلبة و القهر أي ارتفعت كلمتك أو غلبت و قهرت من قولهم علا فلان فلاناً: إذا غلبه و قهره.

و «كلمة تعالى» قيل: كلمة التوحيد.

و قيل: الدعوة إلى الإسلام قال تعالى: «وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا»[3] قال المفسرون: كلمة الذين كفروا هي دعوتهم إلى الكفر و عبادة الأصنام.

و «السفلى» الدّنية التي لا يبالى بها.

و «كلمة الله» هي دعوته إلى الإسلام، أو كلمة التوحيد لا إله إلا الله، و العليا العالية إلى يوم القيامة.

قوله عليه السلام: «ولو كره المشركون» جواب (لو) محذوف لدلالة ما قبله عليه و الجملة معطوفة على جملة قبلها مقدّرة، و كلتاهما في موضع الحال، أي ظهر أمرك و علت كلمتك لو لم يكره المشركون ذلك، ولو كرهوه أي على كلّ حال مفروض و قد حذفت الجملة في الباب حذفاً

١–التوبة: ٤٨.

٢–تفسير الكشاف: ج ٢، ص ٢٧٧.

٣–التوبة: ٤٠.

مطّرداً لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة لأنّ الشيء إذا تحقّق عند المانع فلئن يتحقّق عند عدمه أولى، و على هذا السر يدور ما في (إن) و (لو) الوصليتين من التأكيد.

و «المشركون» هم الذين أشركوا بالله تعالى فجعلوا له شركاء في العبادة.

قال العلماء: و ليس أحد في العالم يثبت لله سبحانه شريكاً في الوجوب و العلم و القدرة، و لكن الثنويّة يثبتون إلهين إثنين حكيماً يفعل الخير و سفيهاً يفعل الشرّ أمّا المتّخذون معبوداً سوى الله تعالى فكثيرون منهم، عبدة الكواكب و هم: الصابئة، و منهم: عبدة المسيح، و منهم: عبدة الأوثان و لا دين باطل أقدم من دينهم، لأنّ أقدم الأنبياء الذين نقل إلينا تاريخهم هو نوح عليه السلام و هو لمّا جاء بالردّ عليهم «وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً»[1] و دينهم باق إلى الآن و عبادتهم لها في مبدأ الأمر لم تكن لإعتقادهم فيها أنّها آلهة إذ العلم بأنّ هذا الحجر المنحوت في هذه الساعة ليس هو الذي خلقني و خلق السماوات و الأرض، علم ضروري فيمتنع اطباق جمع عظيم عليه فوجب أن يكون لهم غرض آخر سوى ذلك و قد ذكروا فيه وجوهاً.

أحدها: أنّ بعضهم كأهل الصين و الهند كانوا مجسّمة فاتّخذوها أشباهاً لله تعالى و ملائكته، و اعتكفوا على عبادتها لقصد طلب الزلفى إلى الله و ملائكته.

الثاني: إنّهم إتّخذوها أصناماً للكواكب، و قصدوا بعبادتها عبادة الكواكب، و هم بالحقيقة عبدة الكواكب.

---

١ ـ نوح: ٢٣.

الثالث: إنّ أصحاب الأحكام إتّخذوها طلاسم في أوقات مخصوصة و عظّموها لإعتقادهم الإنتفاع بها.

الرابع: إنّهم إتّخذوها على صور رجال كانوا يعتقدون فيهم إجابة الدعوة و قبول الشفاعة فعبدوها على إعتقاد أنّ أولئك الرجال يكونون شفعاء لهم يوم القيامة عند الله، و قالوا هٰؤلاء شفعائنا عند الله.

الخامس: لعلّهم إتّخذوها قبلة لطلاتهم و عبادتهم يسجدون إليها لا لها كما إنّا نسجد إلى القبلة لا للقبلة.

السادس: لعلّهم كانوا حلوليّة فاعتقدوا جواز حلول الربّ فيها.

فهذه الوجوه هي التي يمكن حمل مذهبهم عليها حتّى لا يصير بحيث يعلم بطلانه بالضرورة، ثم لمّا تطاول الأمدِ و نسي مبدأ الأمر ظنّ جهّال القوم أنّها آلهة لهم يجب عبادتها فعبدوها و سمّوها آلهة و اشتبهت حال من يعتقد أنّها آلهة مساوية لله تعالى في ذاته و صفاته تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً فسمّوا مشركين و سمّى الله آلهتهم أنداداً تهكّماً بهم[1] و تشنيعاً عليهم فقال «فَلَا تَجْعَلُوا لِلّٰهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ»[2].

* * *

١-تهكّم به: أي إستهزأ به و إستخفّ. النهاية لإبن الأثير: ج ٥، ص ٢٦٨.

٢-البقرة: ٢٢.

أَللَّهُمَّ فَارْفَعْهُ بِمَا كَدَحَ فِيكَ إِلَىٰ ٱلدَّرَجَةِ
الْعُلْيَا مِنْ جَنَّتِكَ، حَتَّىٰ لاَ يُسَاوَىٰ فِي
مَنْزِلَةٍ وَ لاَ يُكَافَأُ فِي مَرْتَبَتِهِ، وَ لاَ يُوَازِيَهُ
لَدَيْكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَ لاَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ.

«الفاء» فصيحة، أي إذا كان كذلك فارفعه.

و «الباء» للسببيّة، و «ما» مصدريّة، أي بسبب كدحه كقوله تعالى: «فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ»[1].

و «الكدح» جهد النفس في العمل و الكدّ فيه بحيث يؤثر فيها، من كدح جلده: إذا خدشه.

و قيل في قوله تعالى: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَـٰقِيهِ»[2] إنّ المراد بالإنسان: محمّد ﷺ المعنى: إنّك تكدح في تبليغ رسالات ربّك فأبشر فإنّك تلق الله بهذا العمل.

و «في» من قوله: «فيك» للتعليل، أي لأجلك، أو ظرفيّة على حذف مضاف أي في سبيلك.

و «الدرجة» المرقاة و الطبقة.

و «العليا» اسم تفضيل مؤنّث الأعلى و أصلها العلوى لأنّها من على يعلو فقلّبت الواو ياءً تخفيفاً لما في كون الظمّة في أوّل الكلمة و الواو قرب الآخر من نوع ثقل مع قصد الفرق بين الاسم و الصفة فقلّبت الواو ياءً في

١ـ السجدة: ١٤.

٢ـ الإنشقاق: ٦.

الاسم دون الصفة، لكون الاسم أسبق من الصفة و إنّما حكموا بأن العليا اسم لا صفة لأنّها لا تكون وصفاً بغير الالف و اللام، فلا تقول: درجة عليا، كما لا تقول دار دنيا، بل الدرجة العليا و الدار الدنيا فأُجريت مجرى الأسماء التي لا تكون وصفاً لأنّ الصفة لا تلزم حالة واحدة و إنّما شأنها أن تكون مختلفة تارة نكرة و تارة معرفة فلمّا اختصّ الوصف بها بحال التعريف كان كونها صفة كلا صفة في ذلك الدنيا.

قال ابن جنّي: العليا و الدنيا و إن كانتا صفتين إلا أنّهما خرجتا إلى مذهب الأسماء كالأجرع و الأبطح[١].

و «الجنة» لغة البستان من النخل و الشجر المتكاثف بالتفاف أغصانها فعلة من جنّة: إذا ستره كأنّها سترة واحدة لالتفافها، و شرعاً اسم لدار الثواب كلّها، و لمّا كانت الجنّة درجات متفاضلات، و منازل متفاوتات كما قال تعالى: «أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ»[٢]. و قال سبحانه: «لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ»[٣]. و كان من مقتضى عدل الله تعالى أن يبلغ نفساً هي محلّ الرسالة أقصى ما استعدّت له من درجات الكمال و يعدّها بذلك لكمال أعلى، دعا له ﷺ أن يرفعه تعالى إلى الدّرجة العليا التي لا درجة أعلى منها.

و عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: الوسيلة درجة

١-لم نعثر عليه.

٢-الأنفال: ٤.

٣-الزمر: ٢٠.

عند الله ليس فوقها درجة فاسئلوا الله أن يؤتيني الوسيلة[١].

و في خبر: الوسيلة درجة في الجنّة ليس في الجنّة درجة أعلى منها فاسئلوا الله أن يؤتينها على رؤوس الخلايق[٢]. فكأنّ ما في الدعاء إشارة إلى ذلك.

قوله ﷺ: «حتّى لا يساوى في منزلة» يجوز أن تكون حتّى بمعنى (كي): التعليليّة و أن تكون بمعنى إلى أن.

و «ساواه مساواة» ما ثله و عادله قدراً و قيمة، و منه قولهم: هذا يساوى درهماً، أي يعادل قيمته درهماً، و أمّا قولهم: يسوى درهماً فليس عربيّاً صحيحاً. و قيل: هي لغة قليلة.

و «المنزلة» المكانة عن الملك و نحوه، يقال: له منزلة عند الأمير، و هي إستعارة من موضع النزول.

قوله ﷺ: «و لا يكافأ في مرتبة» كافأ فلانٌ فلاناً مكافأةً و كفاءً: ماثله، و هو كفؤه أي مماثله.

و «المرتبة» المنزلة و المكانة كالرتبة بالضمّ من رتّب الشيء رتوباً بمعنى ثبت. قال الزمخشري في الأساس: و من المجاز لفلان مرتبة عند السلطان و منزلة و هو من أهل المراتب و هو في أعلى الرتب[٣] إنتهى.

و التنكير في الفقرتين للتعميم إي في شيء من المنازل و المراتب.

قوله ﷺ: «و لا يوازيه لديك ملك مقرّب» الإزاء: المحاذاة و المقابلة.

١-مسند احمد بن حنبل: ج ٣، ص ٨٣، كنز العمال: ج ١٤، ص ٤٠١، ح ٣٩٠٧١.

٢-مسند احمد بن حنبل: ج ٢، ص ٣٦٥، روى شطراً منه.

٣-أساس البلاغة: ص ٢١٩.

قال الجوهري: هو بإزائه أي بحذائه و قد آزيته: إذا حاذيته، و لا تقل وازيته[١] إنتهى.

و في أساس البلاغة: بنو فلان يؤازون بني فلان أي يقاومونهم في كونهم إزاء للحرب، و فلان لا يؤازيه أحد[٢] إنتهى.

و ما منعه الجوهري من قول وازيته[٣] أثبته بعضهم و قال: إنّها لغة لأهل اليمن تبدل الهمزة واواً فيقال: وازيته و واتيته و هو المشهور على ألسنة الناس.

تبصرة

قال بعضهم: فائدة دعاء الأُمّة للرسول ﷺ برفعه إلى الدرجة العليا و أقصى مراتب الزلفى أنّ الله سبحانه قدّرله تلك الدرجة و المنزلة بأسباب.

منها: دعاء أُمّته و رغبتهم إلى ربّهم أن ينيله إيّاها و ذلك بما نالوه على يده من الإيمان و الهدى كما يدلّ عليه أمره ﷺ لأُمّته أن يسألوها له كما مرّ في حديث الوسيلة و أنكر هذا جماعة من المتكلّمين و خصوصاً الأصحاب، و جعلوا هذا من قبيل الدعاء بما وقع إمتثالاً لأمر الله تعالى في قوله: «صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً»[٤] و إلاّ فهو ﷺ قد أعطاه الله من علوّ الدرجة، و قرب المنزلة، و عظيم الفضل، و الجزاء ما لا يؤثّر فيه

١-الصحاح: ج ٦، ص ٢٢٦٨.

٢-أساس البلاغة: ص ١٦.

٣-الصحاح: ج ٦، ص ٢٢٦٨.

٤-الأحزاب: ٥٦.

دعاء داع وجد أو عدم، و فائدة الدعاء إنّما يعود إلى الأُمّة الداعين له لينالوا به زيادة الإيمان و يستفيدوا به الزلفى من الله تعالى و حسن الثواب كما جاء: «من صلّى عليّ واحدة صلّى الله عليه عشراً»[1]. و لعلّ الأقرب من الصواب ما قاله بعض المحقّقين من أصحابنا: إنّه لمّا كانت مراتب إستحقاق نعم الله تعالى غير متناهية كان غاية ذلك طلب زيادة كماله ﷺ و قربه من الله عزّوجلّ.

* * *

---

١ ـ مسند أحمد بن حنبل: ج ٢، ص ٤٨٥.

وَ عَـرِّفْهُ فِي أَهْـلِهِ الطَّـاهِرِينَ وَ

أُمَّـتِهِ الْمُـؤْمِنِينَ مِـنْ حُسْـنِ

الشَّـفَاعَةِ أَجَـلَّ مَـا وَعَـدْتَهُ.

«عرّفه الأمر تعريفاً» أعلمه إيّاه، و عرّفه بيته: أعلمه بمكانه، و أمّـا عرّفه به فبمعنى و سمه.

قال صاحب المحكم: قال سيبويه: عرّفته زيـداً فـذهب إلى تـعدية عرّف بالتثقيل إلى مفعولين يعني أنّك تقول عـرّفت زيـداً فـيتعدّى إلى واحد ثم تثقّل الراء فيتعدى إلى مفعولين، قال: و أمّا عرّفته بـزيد فـإنّما تريد عرّفته بهذه العلامة و أوضحته بها فهو سوى المـعنى الأوّل و إنّمـا عرّفته بزيد كقولك سمّيته بزيد[1] إنتهى.

و «أهل الرجل» عشيرته و أقاربه، و المراد بهم هنا: أهل الكساء مع باقي الأئمة الإثني عشر عليهم السلام لوصفهم بالطاهرين أي النقيّين من الدنس و الرجس في الميلاد و الأعمال البريّين من المآثم و الذنوب صغائرها و كبائرها كما قال تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً»[2].

أخرج الطبراني: عن أمّ سلمة أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله قال لفاطمة عليها السلام: إئتيني بزوجك و ابنيه، فجاءت بهم، فألقى رسول الله صلى الله عليه و آله عليهم كساء فدكيّاً، ثم وضع يده عليهم، ثم قال: أللّهمّ إنّ هؤلاء أهل محمّد و في نسخة لفظ (آل محمّد) فاجعل صلواتك و بركاتك على آل محمّد كما جعلتها على

---

١ ـ المحكم في اللغة: ج ٢، ص ٧٨.

٢ ـ الأحزاب: ٣٣.

آل إبراهيم إنّك حميد مجيد.

قالت أمّ سلمة: فرفعت الكساء لأدخل معهم فجذبه من يدي، و قال إنّك على خير[١].

وفي هذا المعنى روايات كثيرة سيأتي ذكر شيء منها إن شاء الله تعالى.

و «الشفاعة» قيل: هي إصلاح حال المشفوع فيه عند المشفوع إليه، و هذا دوري و الأولى أن يقال: هي السؤال في التجاوز عن الذنب من الذي وقع الجناية في حقّه، و يقال: شفعت في الأمر شفاعة إذا طالبت بوسيلة أو ذمام.

و المراد بحسن الشفاعة: قبولها و الرضا عمّن شفع فيهم و بتعريفه ذلك: أن ينجّز له وعده به فيعرفه واقعاً متحقّقاً معرفة شهوديّة حضوريّة و إن كان هو الآن به عالماً علماً يقينيّاً، فإنّ الأشياء قبل وجودها تكون معلومة للعالم بها و بعد وجودها تكون مشهودة له، و إنّما استعمل التعريف في هذا المعنى لأنّه إذا شاهده عرف أنّه ذلك الذي علم به من قبل فكأنّه عرّفه إيّاه، و ما قيل: من أنّ معنى عرّفه: أذقه بعيد جدّاً. و أبعد منه قول بعضهم: يجوز أن يكون من العرف بالفتح، بمعنى الرائحة الطيّبة و أن يكون من العُرف بالضمّ بمعنى المعروف بل لا يكاد يصحّ. و إنّما دعا الله تعالى بذلك مع العلم بأنّه لا يخلف الميعاد لأنّه سأل له أجل الموعود و عدم الخلف يصدق على إنجاز أدناه و إن لوحظ سعة كرمه تعالى فلا يكون اللايق به جلّ شأنه إلاّ إنجاز أجلّ ما وعد خصوصاً مع أحبّ خلقه إليه و أكرمهم لديه فلأنّ معظم الغرض في الدعاء إظهار سيماء العبوديّة، أو

---

١ ـ المعجم الكبير: ج ٢٣، ص ٣٣٦، ح ٧٧٩ - ٧٨٠.

المراد: وفّق أهل شفاعته للأعمال التي بها يصيرون أهلاً لأجل ما وعدته به من حسن الشفاعة و أعصمهم عمّا لا يستحقّون به ذلك كما في قوله تعالى: «رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ»[١].

فإن قلت: كيف تكون الشفاعة في أهله الطاهرين و هم معصومون من جميع الذنوب و قد قال ﷺ: «إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي، و أمّا المحسنون فما عليهم من سبيل»[٢].

قلت: قد علمت أنّ معظم الغرض في الدعاء إظهار سيماء الإفتقار و العبوديّة فلا منافاة. أو المراد بالشفاعة فيهم شفاعة مخصوصة لا السؤال في التجاوز عن الذنوب و لذلك عبّر بحسن الشفاعة. و سيأتي أنّ الشفاعة على أقسام، منها رفع الدرجات، و في الحديث: «إنّه لا يبقى ملك مقرّب و لا نبي مرسل إلاّ و هو محتاج إليه ﷺ يوم القيامة»[٣].

و يحتمل أن يكون المراد بالشفاعة شفاعتهم لغيرهم لا الشفاعة لهم و كذا شفاعة أُمّته المؤمنين فتكون «في» من قوله «في أهله الطاهرين» متعلّقاً بوعدته. أو هي للمصاحبة بمعنى مع كقوله تعالى: «ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ»[٤] أي معهم فيكون ظرفاً مستقرّاً في محلّ النصب على الحال من الضمير المنصوب في عرّفه لا متعلّقاً بالشفاعة. و المعنى عرّفه مع أهله

١-آل عمران: ١٩٤.

٢-عيون أخبار الرضا: ج ١، ص ١٣٦، ح ٣٥.

٣-الكافي: ج ٨، ص ٤٠٥، رسالة أبي عبد الله ﷺ إلى جماعة من الشيعة.

٤-الأعراف: ٣٨.

الطاهرين و أُمّته المؤمنين أجلّ ما وعدته من حسن الشفاعة في يوم القيامة فلا يكون المشفوع فيهم له ذكر هنا، و قد نقل إجماع المفسّرين في قوله تعالى: «عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا»[١]. على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة.

و عن الباقر عليه السلام: في قوله تعالى: «وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ»[٢] قال: ذاك النبيّ صلى الله عليه وآله و عليّ عليه السلام يقوم على كوم قد علا على الخلايق فيشفع، ثم يقول: يا عليّ إشفع فيشفع و يشفع، الرجل في القبيلة و يشفع الرجل في أهل البيت و يشفع الرجل للرجلين على قدر عمله فذلك المقام المحمود[٣].

و عنه عليه السلام: في قوله تعالى: «وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ»[٤] قال: شفاعة النبيّ «وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ»[٥]: شفاعة عليّ، «أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ»[٦] شفاعة الأئمة[٧].

و روي أنّ أقلّ المؤمنين شفاعة من يشفع في ثلاثين ألفاً[٨].

و الأخبار في ذلك كثيرة.

١-الإسراء: ٧٩.

٢-الجاثية: ٢٨.

٣-المناقب لابن شهراشوب: ج ٢، ص ١٦٥.

٤-يونس: ٢.

٥-الزمر: ٣٣.

٦-الحديد: ١٩.

٧-المناقب لابن شهراشوب: ج ٢، ص ١٦٥.

٨-بحار الأنوار: ج ٨، ص ٥٨، ح ٧٥.

و إن حملت معنى أهله الطاهرين عليهم السلام على الذين هم أعمّ من المعصومين عليهم السلام و فسّرت الطهارة بالطهارة في الميلاد و النسب، فلك جعل الشفاعة فيهم و في أُمّتة المؤمنين، و كانت (في) متعلّقة بالشفاعة فيكون أهله و أُمّته هم المشفوع فيهم، كما روي عنه عليه السلام إنّه قال: أوّل من أشفع له يوم القيامة أهل بيتي ثم الأقرب فالأقرب[١].

و عن ابن عباس: في قوله تعالى: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ»[٢] و لسوف يشفّعك يا محمّد يوم القيامة في جميع أهل بيتك تدخلهم كلّهم الجنّة ترضى بذلك عن ربّك[٣].

و عن علي عليه السلام: أنّه قال صلى الله عليه وآله وسلم: إذن لا أرضى و واحد من أُمّتي في النار[٤].

و عن الصادق عليه السلام: رضا جدّي صلى الله عليه وآله أن لا يدخل النار موحّد[٥].

و لقد أغرب من زعم أنّ المراد بحسن الشفاعة. الشفاعة الحسنة في قوله تعالى: «مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا»[٦].

ثم قال: و قد فسّرت الشفاعة الحسنة بالشفاعة فيما يجوز في الدين و الدعاء للمؤمنين أو أن يصير الإنسان شفيع صاحبه في جهاد عدوّه

١-مما يقرب منه في المناقب لابن شهراشوب: ج ٢، ص ١٦٤.

٢-الضحى: ٥.

٣-المناقب لابن شهراشوب: ج ٢، ص ١٦٥.

٤-غرائب القرآن و رغائب الفرقان: ج ٣، ذيل الآية ٥ من السورة الضحى.

٥-غرائب القرآن و رغائب الفرقان: ج ٣، ذيل الآية ٥ من سورة الضحى.

٦-النساء: ٨٥

لتحصيل الغنيمة عاجلاً و الثواب آجلاً و الإصلاح بين الإثنين، و الشفاعة السيّئة: بعكس هذا قال: و التفسير الأخير بعيد في هذا المقام[١] إنتهى كلامه و لا يخفى بعده عن الصّواب.

تتمّة

قال بعض العلماء: الشفاعات خمس:

الأولى: الإراحة من هول الموقف، و هذه يشترك فيها جميع الأُمم كما دلّت عليه الأخبار.

الثانية: في إدخال قوم الجنّة بغير حساب.

الثالثة: في إدخال قوم حوسبوا و استحقّوا العذاب أن لا يعذّبوا.

الرابعة: في إخراج من أدخل النّار من العصاة.

الخامسة: في رفع الدرجات.

و أنكر بعض المعتزلة و الخوارج الشفاعة الرابعة، و تمسّكوا بقوله تعالى: «فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ»[٢] و بقوله تعالى: «مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ»[٣].

و أُجيب بأن هذه الآيات في الكفّار، و مذهب أصحابنا و الأشاعرة جواز الشفاعة عقلاً و وجوبها سمعاً لصريح قوله تعالى: «يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا»[٤]. وقوله تعالى:

١-مجمع البيان: ج ٣ - ٤، ص ٨٤ نقلاً بالمعنى.

٢-المدّثر: ٤٨.

٣-غافر: ١٨.

٤-طه: ١٠٩.

«وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ»[1] و قـد جـاءت الأخـبار التي مـبلغها التواتر بصيغة الشفاعة في الآخرة لمذنبي المؤمنين جعلنا الله ممّن تـناله شفاعة نبيّه و آله الطاهرين صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين.

* * *

١ ـ الأنبياء: ٢٨.

يَا نَافِذَ الْعِدَةِ، يَـا وَافِيَ الْـقَوْلِ، يَـا مُـبَدِّلَ السَّـيِّئَاتِ بِـأَضْعَافِهَا مِـنَ الْحَسَنَاتِ، إِنَّكَ ذُو الْفَضْلِ الْـعَظِيمِ.

«نافذ العدة» - بالذال المعجمة - أي ماضيها، من نفذ السهم كقعد نفوذاً: إذا خرق الرمية و خرج منها، أي لا خلف لعدته بل هي ماضية لا مردّ لها كالسهم النافذ لا مردّ له و لا وقوف.

و «العدة» الوعد، و أصلها وعْدة بالكسر استثقلت الكسرة على الواو فنقلت إلى العين ثمّ حذفت الواو و لزمت تاء التأنيث عوضاً منها.

قال الفرّاء: يقال: وعدته خيراً و وعدته شراً بإسقاط الألف[1].

فإذا أسقطوا الخير و الشرّ قالوا في الخير: وعدته، و في الشرّ: أوعدته بالألف، و في الخير: الوعد و العِدة، و في الشرّ: الإيعاد و الوعيد، فإذا قالوا أوعدته بالشرّ: أثبتوا الألف مع الباء.

قال صاحب المحكم: و قال ابن الأعرابي: أوعدته خيراً بالألف و هو نادر و أنشد:

يـبسطني مـرّة و يـوعدني فضلاً طريقاً إلى أيـاديه[2]

و الخلف في الوعد عند العرب كذب، و في و الوعيد كرم قال الشاعر:

إذا وعـد السرّاء أنجـز وعـده و إن أوعد الضرّاء فالعفو مانعه

و لخفاء الفرق في ذلك من كلام العرب إنتحل بعض أهل البدع القول بوجوب الوعيد قياساً على الوعد لجهلهم باللغة العربية.

و قد نقل: أنّ أبا عمرو بن العلاء نبّه عمرو بن عبيد و هـو طـاغية

١-تاج العروس: ج ٢، ص ٥٣٦.

٢-المحكم لإبن سيده: ج ٢، ص ٢٣٧.

المعتزلة على ذلك فلم يقبل[1].

حكى المبرد: عن أبي عثمان المازني قال: حدّثني محمّد بن مسعَر، قال: جمعنا بين أبي عمرو بن العلاء و عمرو بن عبيد في مسجدنا، فقال له: أبو عمرو ما الذي يبلغني عنك في الوعيد؟ فقال: إنّ الله وعد وعداً و أوعد إيعاداً فهو منجز وعده و وعيده فقال أبو عمرو: أبيت أبا عثمان إلاّ العجمة و لا أعني عجمة لسانك، و لكن فهمك أنّ العرب تعدّ الرجوع عن الوعد لوماً و عن الوعيد كرماً و أنشد.

و انّي إذا أو عــدته أو وعــدته لمخلف إيعادي و منجز موعدي[2]

و ذلك أنّ الوعد حقّ عليه، و الوعيد حقّ له، و من أسقط حقّ نفسه فقد أتى بالجود و الكرم، و من أسقط حقّ غيره فذلك هو اللّوم، فهذا هو الفرق بين الوعد و الوعيد، على أنّ كلّ ما ورد من وعيد الفسّــاق فـهو مشروط بعدم العفو كما أنّه مشروط بعدم التوبة و فاقاً فلا يلزم من تركه الكذب في كلام الله تعالى.

و «وافى القول» أي صادقه يقال: و فى و أوفى بمعنى.

و «القول» الكلام، و قيل: القول في الخير، و القال و القيل و القـالة في الشرّ.

قوله عليه السلام: «يا مبدّل السيّئات بأضعافها من الحسنات» إشـارة إلى قوله تعالى: «إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَـٰلِحاً فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ»[3] عن ابن عباس، و الحسن و مجاهد، و قـتادة: إنّ

١-المصباح المنير: ص ٦٦٥.

٢-المصباح المنير: ص ٦٦٥.

٣-الفرقان: ٧٠.

هذا التبديل إنّما يكون في الدنيا فيبدّلهم بالشرك إيماناً و بقتل المسلمين قتل المشركين و بالزنا عفة و إحصاناً[١].

فبشّرهم الله أنّه يوفّقهم لهذه الأعمال الصالحة إذا تابوا و آمنوا و عملوا سائر الأعمال الصالحات.

و قال الزجاج: السيّئة بعينها لا تصير حسنة، ولكن السيّئة تمحى بالتوبة و تكتب الحسنة مع التوبة[٢].

و ذهب سعيد بن جبير: إلى ظاهر الآية و هو أنّه تعالى يمحو السيّئة عن العبد و يثبت له بدلها الحسنة و أكّد هذا الظاهر بما روى مرفوعاً: ليتمنّينّ أقوام أنّهم أكثروا من السيّئات، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: الذين يبدّل سيّئاتهم حسنات[٣].

و قال القاضي و القفّال: إنّه تعالى يبدّل بالعقاب الثواب، فذكر السبب و أراد المسبّب[٤].

و قيل: يبدّل بملكة المعصية و دواعيها في النفس ملكة الطاعة بأن يزيل الأولى و يأتي بالثانية.

و روى علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن أبي جعفر و إبراهيم، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: قال إذا كان يوم القيامة أوقف الله المؤمن بين يديه و عرض عليه عمله فينظر في صحيفته فأوّل ما يرى سيّئاته فيتغيّر عند ذلك لونه، فيقول الله عزّوجلّ: بدّلوا سيئاته حسنات و أظهروها للناس

١-مجمع البيان: ج ٧ - ٨ ص ١٨٠، مع اختلاف يسير في العبارة.

٢-التفسير الكبير للفخر الرازي: ج ٢٤، ص ١١٢.

٣-الدر المنثور: ج ٥، ص ٧٩ - ٨٠.

٤-أنوار التنزيل: ج ٢، ص ١٥١، و التفسير الكبير: ج ٢٤، ص ١١٢.

فيبدلها الله لهم. فيقول الناس: أما كان هٰؤلاء سيّئة واحدة و هو قوله تعالى: «يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ»[1][2].

و في رواية عن الصادق عليه السلام: إذا كان يوم القيامة تجلّى الله تعالى لعبده المؤمن فيقفه على ذنوبه ذنباً ذنباً، ثمّ يغفر له لا يطلّع على ذلك ملكاً مقرّباً و لا نبيّاً مرسلاً، و يستر عليه ما يكره أن يقف عليه أحد، ثمّ يقول: لسيئاته كوني حسنات[3]، و روى مسلم في صحيحه مرفوعاً إلى أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله: يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: أعرضوا عليه صغار ذنوبه و يخبأ عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا كذا و كذا، و هو مقرّ لا ينكر، و هو مشفق من الكبار، فيقال: أعطوه مكان كلّ سيّئة عملها حسنة فيقول: إنّ لي ذنوباً ما أراها هاهنا قال: و لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه و آله ضحك حتّى بدت نواجده[4].

فإن قلت: الآية إنّما دلّت على تبديل السيّئات حسنات فما بال الأضعاف الواقعة في الدعاء؟

قلت: أمّا على القول بأنّ هذا التبديل يكون في الدنيا إمّا بالتوفيق للأعمال الصالحة بعد الأعمال السيّئة كما نقل عن ابن عباس[5]، و إمّا تبديل ملكة المعصية بملكة الطاعة فوجه الأضعاف ظاهر لأنّ «مَن جَآءَ

١-الفرقان: ٧٠.

٢-تفسير القمي: ج ٢، ص ١١٧.

٣-عيون أخبار الرضا: ج ٢، ص ٣٣.

٤-صحيح مسلم: ج ١، ص ١٧٧، ح ٣١٤/١٩٠، مع اختلاف يسير في العبارة.

٥-كتاب مجموعة من التفاسير: ج ٤، ص ٤٥٨.

بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا»[1] بنصّ الكتاب.

و أمّا على القول بأن التبديل بكون في الآخرة كما دلّت عليه الأخبار المذكورة. فالظاهر أنّه إذا بدّل سيئة العبد حسنة فكأنّه جاء بالحسنة، و قد قال تعالى: «مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا»[2] و يفعل الله بالمؤمنين ما يشاء من الخير و لذلك ختم الدعاء بقوله عليه السلام: «إنّك ذو الفضل العظيم» تذييلاً لما سبق و تقريراً لمضمونه.

و «الفضل» الخير و الإحسان إبتداءً.

و «العظيم» ضدّ الحقير، كما أنّ الكبير ضدّ الصغير، و كما أنّ الحقير دون الصغير، فكذلك العظيم فوق الكبير، و يستعملان في الصور و المعاني يقال: رجل عظيم و كبير أي جثّة أو قدراً، و هو هنا صفة للفضل كما وقع في التنزيل مكرراً «وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ»[3] و وقع في نسخة مضبوطاً بالضمّ على أنّه صفة له تعالى و الأوّل أنسب بالمقام، و فيه إيذان بأنّ جميع الإحسان الواقع و المرجوّ، رشحة من بحار إفضاله و عظيم إحسانه و نواله، و إنّ من حرم ذلك ليس لضيق ساحة فضله بل لعدم إستعداد المحروم و قابليّته. نسأل الله أن لا يحرمنا من فضله العظيم وجوده العظيم بجاه نبيّه الكريم و أهل بيته الطاهرين صلوات الله و سلامه عليه و عليهم أجمعين و الحمد لله ربّ العالمين.

قم المشرفة
السيد محسن الحسيني الأميني
١٥ جمادي الأولى ١٤٢٧ هجـ

١ـ الأنعام: ١٦٠.

٢ـ الأنعام: ١٦٠.

٣ـ الجمعة: ٤.

الفهارس

فهرست الآيات

* * *

فهرس الأحاديث الشريفة

الأحاديث	الصفحة
إذا ذكر النبي ﷺ فأكثروا الصّلاة عليه فإنّه من صلّى	٢٩
إذا كان يوم القيامة أوقف الله المؤمن	١٢٣
إذا كان يوم القيامة تجلّى الله تعالى	١٢٤
إذا كانت لك إلى الله سبحانه حاجة	٢٨
إذن لا أرضى و واحد من أُمّتي في النار	١١٨
إِرَادَةً مِنْهُ لإِعْزَازِ دِينِكَ، و ٱسْتِنْصَاراً عَلَى أَهْلِ الْكُفْرِ بِكَ	٩٣
إرفعوا أصواتكم بالصّلاة عليّ فإنّها تذهب بالنفاق	٢٩
أصبحنا خائفين برسول الله، وأصبح جميع أهل الإسلام آمنين	١١
اطلبوا العلم و لو بالصين	٤٨
أعجل العبد ربّه	٢٧
أعذرنا يا أبا فراس فلو كان عندنا أكثر من هذا لوصلناك به	١٧
إفعلوا الخير و لا تحقّروا منه شيئاً، فإنّ صغيره كبير	٦٩
ألا تدرون بين يدي من أقوم و لمن أُناجي؟	١٠
إِمَامِ ٱلرَّحْمَةِ وَ قَائِدِ الْخَيْرِ وَ مِفْتَاحِ الْبَرَكَةِ	٦٦
أنا نبيّ الرحمة	٦٦
أنا نبيّ الملحمة	٦٨
انّ أقلّ المؤمنين شفاعة من يشفع في ثلاثين ألفاً	١١٧
إنّ أُمتي يأتون يوم القيامة غرّاً محجّلين	٣٩
إنّ الثناء على الله، و الصّلاة على رسوله قبل المسألة	٢٧
إنّ الذي قدر أن يدخل الذي تراه	٤٥
إنّ رجلاً دخل المسجد فصلّى ركعتين	٢٧

الأحاديث	الصفحة

الأحاديث	الصفحة
أيّها أصغر؟	٤٥
بحقّي عليك لما قبلتها، فقد رأى الله مكانك و علم نيّتك فقبلها	١٧
بعثت بالحنيفيّة السمحة السهلة	٦٧
بعث الله محمّد صلى الله عليه وآله لإنجاز عدته، و تمام نبوّته	٩٤
بِقُدْرَتِهِ الَّتِي لا تَعْجِزُ عَنْ شَيْءٍ وَ إِنْ عَظُمَ، وَ لاَ يَفُوتُهَا شَيْءٌ	٤٢
تناكحوا تناسلوا فإنّي مكاثر بكم الأمم يوم القيامة	٦٠
حَتَّى اَسْتَتَبَّ لَهُ مَا حَاوَلَ فِي أَعْدَائِكَ	٩٨
حَتَّى ظَهَرَ أَمْرُكَ وَ عَلَتْ كَلِمَتُكَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ	١٠٦
حجّ علي بن الحسين عليه السلام ماشياً	١٠
خاض إلى رضوان الله تعالى كلّ غمرة	٨١
دعاه رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الطائف فانتجاه	٦٤
دعوة الحق: قول لا إله إلا الله	٨٥
ذاك النبيّ صلى الله عليه وآله و عليّ يقوم على كوم قد علا على الخلايق فيشفع	١١٧
رضا جدّي صلى الله عليه وآله أن لا يدخل النار موحّد	١١٨
سل تعط	٢٧
سمع سائل في جوف الليل و هو يقول	١١
سمّاني الله من فوق عرشه	٣٣
شفاعة الأئمة	١٠٩
شفاعة عليّ	١١٧
شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي	٣٨
شفاعة النبيّ	١١٧

الأحاديث	الصفحة
ما انتجيته ولكن لله انتجاه	٦٤
ما أوذي نبي مثل ما أُوذيت	٨١
ما في الميزان شيء أثقل من الصّلاة على محمّد و آل محمّد	٢٩
من آذى ذمّياً فقد آذاني	٦٧
من جاور بمكة سنة غفر الله له ذنبه	٩١
من ختم القرآن بمكّة من جمعة إلى جمعة	٩١
من ذكرت عنده و لم يصلّ عليّ دخل النّار	٢٥
من ذكرت عنده و لم يصلّ عليّ فدخل النار فأبعده الله	٢٥
من صلّى عليّ صلّى الله عليه و ملائكته	٢٩
من صلّى عليّ واحدة صلّى الله عليه عشراً	١١٣
من صلّى على محمّد و آل محمّد عشراً	٢٩
من قال: مطرنا بنوء كذا فقد كفر بما أُنزل على محمّد	٩٦
من لم يحبّ على الدين و لم يبغض عن الدين فلا دين له	٨٠
نحن الأُمّة الوسط و نحن شهداء الله على خلقه وحجّته في أرضه	٥٨
نحن الشهداء على الناس بما عندهم من الحلال و الحرام	٥٨
نعم و في أصغر من البيضة قد جعلها الله في عينك	٤٨
وَالحَمدُ لِلّهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيْنَا بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ و آلِهِ	٣٢
والذي نفس محمّد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأُمّة يهودي	٣٩
وَ أَذْأَبَ نَفسَهُ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَتِكَ، وَ أَتْعَبَهَا بِالدُّعَاءِ إِلَىٰ مِلَّتِكَ	٨١
وَ أَقْصَى الأَدْنَيْنَ عَلَى جُحُودِهِمْ	٧٨
وقع على الأرض معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء	٨٨

الأحاديث	الصفحة

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

* * *

مصادر التحقيق

١- الإرشاد: للشيخ المفيد، قم - ايران.

٢- أساس البلاغة: لجار الله محمود بن عمر الزمخشري، منشورات مكتب الإرشاد الإسلامي، قم - ايران.

٣- الإعتقادات في دين الإماميّه: للشيخ الصدوق، منشورات محلاتي، قم - ايران.

٤- الأغاني: لأبي الفرج الإصفهاني، منشورات دار الفكر، بيروت - لبنان.

٥- أنوار التنزيل و أسرار التأويل: لعبدالله بن عمر البيضاوي، منشورات الكعبة، طهران - ايران.

٦- بحار الأنوار: للعلّامة المجلسي، منشورات دار الكتب الإسلاميّة، طهران - ايران.

٧- بداية المجتهد و نهاية المتقصد: للامام محمّد بن أحمد بن محمد القرطبي، منشورات الرضي، قم - ايران.

٨- البداية و النهاية: لإبن كثير الدمشقي، منشورات دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان.

٩- البرهان في تفسير القرآن: للعلّامة السيد هاشم البحراني،

منشورات إسماعيليان، قم - ايران.

١٠- بصائر الدرجات: للشيخ محمد بن حسن الصفّار، منشورات الأعلمي، طهران - ايران.

١١- تاج العروس: للسيّد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي.

١٢- تذكرة الخواص: للعلّامة سبط ابن الجوزي، منشورات مكتبة نينوى، طهران - ايران.

١٣- ترجمه الإمام زين العابدين على بن الحسين عليهما السلام من تاريخ مدينة دمشق: لإبن عساكر، منشورات مجمع إحياء الثقافة الإسلاميّة، طهران - ايران.

١٤- الترغيب و الترهيب: للإمام عبد الله المنذري، منشورات دار الفكر، بيروت - لبنان.

١٥- تفسير العياشي: لمحمد بن مسعود بن عياشي السلمي السمرقندي المعروف بالعياشي، منشورات المكتبة العلميّة الإسلاميّة، ايران - طهران.

١٦- تفسير غرائب القرآن و رغائب الفرقان: للعلّامة حسن بن محمّد بن حسين القمي النيسابوري في هامش جامع البيان في تفسير القرآن للطبري، منشورات دار الجيل، بيروت - لبنان.

١٧- تفسير القمي: لعلي بن إبراهيم القمي، منشورات دارالكتاب، قم - ايران.

١٨- تفسير الكبير: للفخر الرازي، الطبعة الثالثة، قم - ايران.

١٩- تفسير نور الثقلين: للعلّامة الحويزي، منشورات دار الكتب العلميّة، قم - ايران.

٢٠- التوحيد: للشيخ الصدوق، منشورات مؤسسة النشر الإسلامي، قم - ايران.

٢١- تهذيب الأسماء و اللغات: للإمام النووي.

٢٢- تهذيب اللغة: للأزهري.

٢٣- ثواب الأعمال: للشيخ الصدوق، منشورات الشريف الرضي، قم - ايران.

٢٤- جامع البيان في تفسير القرآن: لأبي جعفر محمّد بن جرير الطبري، منشورات دار الجيل، بيروت - لبنان.

٢٥- الجامع الصغير: للإمام السيوطي، منشورات دار الفكر، بيروت - لبنان.

٢٦- حلية الأولياء: لأبي نعيم الإصفهاني، منشورات دار الفكر، بيروت - لبنان.

٢٧- الخصال: للشيخ الصدوق، منشورات جماعة المدرسين، قم - ايران.

٢٨- الدر المنثور: للإمام السيوطي، منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم - ايران.

٢٩- الدروس الشرعيّة في فقه الإمامية: للإمام محمّد بن مكي العاملي الشهيد، منشورات صادقي، قم - ايران.

٣٠- الذريعة إلى تصانيف الشيعة: للعلّامة آقا بزرگ الطهراني، منشورات دار الأضواء، بيروت - لبنان.

٣١- ربيع الأبرار: لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، منشورات الشريف الرضي، قم - ايران.

٣٢- روضة الواعظين: للفتّال النيسابوري، منشورات الشريف الرّضي، قم - ايران.

٣٣- زبدة البيان في أحكام القرآن: للمحقّق الأردبيلي.

٣٤- سنن إبن ماجة: لأبي عبدالله محمّد بن يزيد القزويني، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

٣٥- سنن أبي داود: لابن داود السجستاني، منشورات دار إحياء السنّة النّبويّة، بيروت - لبنان.

٣٦- السيرة الحلبيّة: لعلي بن برهان الدين الحلبي الشافعي، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

٣٧- شذور الذهب: لابن هشام النحوي الأنصاري، منشورات دار الهجرة، قم - ايران.

٣٨- شرح الشافية: للرضي الاسترابادي، منشورات المكتبة المرتضويّة.

٣٩- شرح الكافيّة في النحو: للرضي الاسترابادي، منشورات المكتبة المرتضويّه للإحياء الآثار الجعفريّة.

٤٠- شواهدالتنزيل: للحاكم الحسكاني، منشورات مجمع إحياء الثقافة الإسلاميّة التابعة لوزارة الثقافة و الإرشاد الإسلامي، طهران - ايران.

٤١- الصحاح: لإسماعيل بن حماد الجوهري، منشورات دارالعلم للملائين، بيروت - لبنان.

٤٢- صحيح البخاري: للإمام أبي عبدالله محمّد بن إسماعيل البخاري الجعفي، منشورات دار الفكر، بيروت -لبنان.

٤٣- صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجّاج القشيري النيشابوري، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

٤٤- علل الشرايع: للشيخ الصدوق، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

٤٥- عيون أخبار الرضا عليه السلام: للشيخ الصدوق، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

٤٦- غرائب القرآن و رغائب الفرقان.

٤٧- الغريبين: للهروى، مخطوط في مكتبة جامعة طهران.

٤٨- الفقه على المذاهب الأربعة: لعبد الرحمان الجزيري، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

٤٩- القاموس المحيط: للفيروز آبادي، منشورات - دارالمعرفة، بيروت - لبنان.

٥٠- الكافي: للشيخ الكليني، منشورات دارالكتب الإسلاميّة، طهران - ايران.

٥١- كتاب السيوطي: لأبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي.

٥٢- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: منشورات أدب الحوزة، قم - ايران.

٥٣- كشف الغمّة في معرفة الأئمّة: للعلّامة أبي الحسن علي بن عيسى ابن أبي فتح الإربيلي، منشورات دار الكتب الإسلامي، بيروت - لبنان.

٥٤- الكنى و الألقاب: للمحدّث الشيخ عباس القمي، منشورات مكتبة الصدر، طهران - ايران.

٥٥- لسان العرب: لأبي منظور، منشورات دار صادر، بيروت - لبنان.

٥٦- مجمع البيان للشيخ الطوسي، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

٥٧- مجمع الزوائد: لعلي بن أبي بكر الهيثمي، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

٥٨- المجموع شرح المهذّب: للإمام محيي الدين النووي، منشورات دار الفكر، بيروت - لبنان.

٥٩- المحكم في اللغة: لابن سيدة.

٦٠- مسند الإمام أحمد بن حنبل: منشورات دار الفكر، بيروت - لبنان.

٦١- المصباح المنير: للفيومي، منشورات دارا لهجرة ايران - قم.

٦٢- معالم العلماء: للحافظ الشهيد محمّد بن علي بن شهرآشوب السروي، منشورات المطبعة الحيدريّة، نجف الأشرف.

٦٣- معاني الأخبار: للشيخ الصدوق، منشورات جماعة المدرسين، قم - ايران.

٦٤- معجم البلدان: للشيخ الحموي الرومي البغدادي، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

٦٥- معجم مقاييس اللغة: لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، منشورات مكتب الإعلام الإسلامي.

٦٦- المعجم الكبير: لسليمان بن أحمد الطبراني، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

٦٧- مغني اللبيب: عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصارى، منشورات مكتبة بني هاشمي، تبريز - ايران.

٦٨- المفردات في غريب القرآن: للراغب الإصفهاني، منشورات مكتب الإعلام الإسلامي، قم - ايران

٦٩- مكارم الأخلاق: لأبي نصر الحسن بن الفضل الطبرسي، منشورات النشر الإسلامي، قم - ايران.

٧٠- مناقب آل أبي طالب: لأبي جعفر رشيد الدين محمّد بن علي بن شهراشوب السروي المازندراني، منشورات مؤسسة العلّامة، قم - ايران.

٧١- من لايحضره الفقيه: للشيخ الصدوق، منشورات دارالكتب الإسلاميّة، طهران - ايران.

٧٢- الموطأ: للإمام مالك بن أنس، منشورات دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان.

٧٣- النهاية في غريب الحديث و الأثر: لابن الأثير، منشورات المكتبة الإسلاميه، بيروت - لبنان.

٧٤- نهج البلاغة للإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: تحقيق صبحي صالح، منشورات دار الهجرة، قم - ايران.

٧٥- وسائل الشيعة: للشيخ الحر العاملي، منشورات المكتبة الإسلاميّة، طهران - ايران.

* * *